إسطنبول: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

إسطنبول: ١٤٣٥/ ٢٠١٤

اسم الكتاب باللغة التركية: Faziletler Medeniyeti - 1

اسم الكتاب بالعربية: حضارة الفضائل -١

الترجمة للعربية: أرسين إشجي أوغلو/ فاطمة أرسين إشجي أوغلو

مراجعةو تصحيح وتدقيق: أحمد حمدي

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٦٢٥٨

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:



Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : http://www.islamicpublishing.net

حضارة الفضائل

-١-

«الإيمان والعبادة»

تأليف

عثمان نوري طوبّاش



مُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي كرَّم الخلقَ وشرَّف البشرية بسيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، فأقسم بحياته تعظيما له وتكريما، وجعل الانتساب له عزا وشرفا، اللهم فلك الحمد أن شرفتنا بالانتساب إليه وجعلتنا من أمته وعلى ملته.

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد، منهل الرحمة ومنبع البركة لجميع العوالم، من ارتقى بفضائله وأخلاقه حتى صار الأسوة الحسنة للإنسانية كلها.

وبعد...

فإن على الإنسان –بعد أن أكرمه اللّه تعالى وسخر له ما في الكون– أن يقوم بحق هذا التكريم وأن يحيى عبدا للّه، شاكرا له، متأدبا بآدابه، متخلقا بأخلاقه، متزيناً بالفضائل والمكارم التي أمر بها سبحانه.

فالفضائل ومكارم الأخلاق –كما أخبرنا النبي ﷺ في الحديث: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"– هي الغاية العظمى والمهمة



الأساسية من بعثته، بل هي جوهرها وغايتها، ولذلك كانت جميع أحوال سيدنا رسول اللّه عليه الصلاة والسلام نماذج راقية ومظاهر سامية للخصال الحميدة والأخلاق الحسنة، حتى قال الحق تعالى مادحا نبيه ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)

فالنبي عليه الصلاة والسلام ليس معلما يعلم القرآن الكريم فحسب، وإنما هو مرشد يهدي الخلق إلى اللّه تعالى قولا وعملا حتى كان قرآنا حيا يمشي على الأرض، وكانت حياته الكريمة أعظم قدوة للأجيال المتعاقبة إلى يوم الدين.

ولذلك كانت بعثته الشريفة نورا أضاء آفاق الكون الغارقة في ظلمات الجاهلية، وفجرا مشرقا طالما تاقت إليه البشرية لرؤية تباشيره التي أضاءت القلوب وأنارت البصائر وتألقت بالأرواح وارتقت بها في عالم الفضائل، فبالنبي ﷺ بلغت البشرية كمالها ونالت كرامتها وعرفت أسمى معاني الحق والعدل والفضيلة.

ولما كان النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده فقد جمع اللّه فيه كل ما يحتاجه الإنسان من خصال وأخلاق ليبلغ ذروة الشرف والكمال.

ولذلك فقد كان ﷺ قمة في المحبة، وقمة في الشجاعة، وقمة في الصبر والثبات، وقمة في الكرم والتضحية والإيثار، وقمة في



التواضع والزهد والورع والقناعة على كثرة الغنائم والنعم الدنيوية بين يديه، وقمة في الرحمة والشفقة ومساعدة المحتاجين، وقمة في الإخلاص والتقوى، وقمة في الرضا والشكر، وقمة في عبادة اللّه تعالى ومعرفته، وقمة في النبوة، وقمة في التربية والتعليم والأدب مع اللّه تعالى، وقمة في تربية القلوب الجريحة، وقمة في الصدق والأمانة، وقمة في محبة اللّه تعالى، وباختصار فهو ﷺ قمة كل فضيلة وخلق، أي إنه أكمل العباد وأشرفهم.

فكل كمال وفضيلة إنما عرفتها البشرية حق المعرفة من خلال حياة النبي ﷺ، فقد كان نموذج **الإنسان الكامل** الذي أراده اللّه تعالى مثالا يحتذى للبشرية جمعاء، فكانت أفكاره ومبادئه وكلماته ومعاملاته منهجا عاشه النبي واقعا في حياته وكذلك أمته من بعده.

هذا بينما بقيت أفكار الفلاسفة وآراؤهم حبيسة الكتب القديمة، منبتة عن الواقع، حتى عجزوا عن تحقيقها في حياتهم وحياة أقوامهم وبقيت نظريات تائهة في عالم الأفكار.

فمع أن أرسطو يعد مؤسس فلسفة الأخلاق وواضع قواعدها إلا أننا لا نكاد نجد من طبقها في حياته وبلغ بها السعادة التي يحلم بها، ويعود ذلك لانفصاله عن الوحي الإلهي، حتى إن أهم أثر للفارابي المعروف بـ "آراء أهل المدينة الفاضلة" -والذي يضم أفكاره بشأن المجتمع المثالي الذي حلم به- لم تجاوز أفكارُه تلك سطورَ كتابه، لأنها لا رصيد لها من الواقع والتطبيق ولم تنبثق



عن تجربة ودربة وإنما عن تأملات ورؤى، بينما كان النبي ﷺ يؤثر بسلوكه وأخلاقه فيمن حوله حتى قبل النبوة، فقد كان يعيش الأخلاق الفاضلة سلوكا حيا وواقعا عمليا لا ينفصل عن شخصيته وكيانه. ونتيجة لذلك وصفوه بالأمين الصادق قبل النبوة أيضاً.

وهكذا فإنه بمثل هذه الأخلاق والفضائل السامية تشكل "عصر السعادة" للبشرية، والذي وصفه القرافي -(ت. ٦٨٤) الفقيه المالكي وأحد أهم فلاسفة الحقوق في الإسلام- فقال:

(لو لم يكن لرسول اللّه ﷺ معجزة إلا أصحابه، لكفوه لإثبات نبوته)،

فحال النبي عليه الصلاة والسلام كانت ترجمة عملية لأخلاق القرآن الكريم وفضائله التي أمر الناس بها.

ولما كان الإنسانُ أعظم أثر لصنعة الحق تعالى، وكان سيدنا محمد ﷺ أعظم إنسان خلقه اللّه تعالى، جعل الحقُّ تعالى طاعتَه طاعةً له تعالى وعصيانَه عصيانا له سبحانه فقال سبحانه تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)

وعليه فقد كان الثناء على رسول اللّه ﷺ -والذي ينعكس على اللسان بقدر تمكنه في الفؤاد- بكل أنواع المديح مباحا شريطة أن لا يشوبه شيء من الشرك أبدا.



ويأتي **الصحابة** على رأسِ الذين أدركوا المثلَ الأعلى لصنْعة ربنا المعجِزَة على الوجه الأكمل -ضمن طاقتهم البشرية- وقاموا بنقل آثاره إلينا.

ولذلك قدم **الصحابة** الكرام فضائل لا يمكن حصرها في الجود والإيثار والتضحية في سبيل اللّه تعالى حين أدركوا-بصحبتهم للنبي ﷺ وتخلقهم بأخلاقه-أن قيمة الإنسان الحقيقية ومكانته إنما تكون بقدر استعداده للآخرة وما ادخره لها.

فهم قد وقفوا حياتهم على رضا اللّه تعالى، وبلغوا القمة في تفانيهم لتبليغ أمره سبحانه، حتى كانت أسعد أوقاتهم وأعظمها أثرا في نفوسهم هي تلك التي أمضوها وهم يبلغون فيها رسالة التوحيد للبشرية.

وكذلك من جاء بعد عصر الصحابة واتبعهم بإحسان من **أولياء اللّه تعالى**، فقد سموا ببركة اتباع النبي عليه الصلاة والسلام والتخلق بأخلاقه حتى بلغوا شأوا بعيدا في عالم الفضائل.

يبين لنا مولانا جلال الدين الرومي هذه الحالة على نحو رائع فيقول:

(أقبل أيها القلب، فالعيد الحقيقي إنما يكون بلقاء النبي محمد ﷺ، لأن إشراق الكون يكون من نور جمال تلك الذات المباركة).

ثمّ إنّ أولياء اللّه تعالى -من العلماء والعارفين الذين شَرُفُوا بلقب "ورثة الأنبياء"- هم منارة هادية للأجيال كلها بكمال



سلوكهم، يرشدون -بالقدوة والأسوة- من لم ينل شرف لقاء النبي ﷺ ويهدونه إلى التأسي والاقتداء به ﷺ.

وباختصار فَمِمّا لا شكّ فيه أنّ الأنبياء هم النواة الصلبة للفضائل التي تحيي القلوب، والنبي عليه الصلاة والسلام يأخذ مكانه في المحراب إماما للأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام، وأما الصفوف وحلقات الفضيلة التي تتوالى بعد ذلك فهم العلماء والعباد المخلصون والعارفون والعاشقون وأمثالهم، كلٌّ حسب درجة اتباعه وتعلقه بهم، فهم لتخلقهم بكل فضيلة-مخلصين للّه تعالى-تركوا فيمن حولهم ذكريات نادرة لا تبلى، حتى صاروا وجوه المجتمعات وقياداتها وأثروا في الناس بعبوديتهم للّه وحرصهم على خدمة خلقه حتى صارت قصص الفضائل المأثورة عنهم تمنح الأرواحَ سكينة وطمأنينة، وشفاءً للأفئدة العليلة، فأنشأوا بهذا **حضارة الفضائل**.

لذا قال الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه اللّه فيما يتعلق بالتذكير بفضائل القصص والتي اتخذها القرآن الكريم أسلوباً له:

"إن قصص الصالحين أحبّ إليّ من بعض أبواب الفقه، فهي ترقق القلب وتقرب العبد من ربه".

وفي الحقيقة فإنه من الصعوبة بمكان أن يدرك الإنسان مسألةً ما على أكمل حال دون ضرب المثل لها، فالخير والشر لا ينجليان



إلا في ضوء الأمثلة، والحب يغدو نابضا وحياً بالأمثلة، والتخلق بحال الحبيب يتحقق بأمثلة جميلة تحاكيه، وبناء عليه فإن الأمثلة الحسنة حظوظ إلهية تبلغ بالإنسان إلى قمم الأصالة والكرامة، فقد قال الإمام مالك بن دينار رحمه اللّه تعالى:

"فقصص العباد الصالحين ما هي إلا هدايا من الجنة".

وعليه فإن كل واحدة من قصص الفضائل هي بمثابة درر نفيسة تهدى للعبد، وتأخذ بيده للتخلق بالأخلاق الحسنة، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن اللّه يبغض الفاحش البذيء".[1]

وما من شك في أن جوهر الأخلاق الحميدة لا يتحقق إلا بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ومن اتبعه من الصالحين، وهذا أول شرط في التمسك بحلقة الفضيلة، أما الضياع في دوامة الغفلة -بعيدا عن صحبتهم-فهو جوهر الأخلاق السيئة، فقد قال الحق تعالى في الحديث القدسي موضحا هذه الحقيقة:

"من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره

١ الترمذي، البر، ٦٢، ٢٠٠٢



الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه".[٢] رواه البخاري

فالواجب علينا اتباع الرسول ﷺ ومَنْ سار على نهجه من الأولياء والصالحين-من صميم قلوبنا- لننال من الفضائل السامية ما يجعلنا مقبولين عند الحق تعالى.

ولذا فإن معرفة النبي عليه الصلاة والسلام والاقتداء به في كل خلق قد يبلغان بالمرء شرف الصحبة التي بشر النبي ﷺ بها.

فإن عرفناه اليوم فسيعرفنا هو غداً في المحشر، وإن شرُفنا بالنظر إليه فسينظر هو إلينا، وإن استمعنا إليه واستجبنا له فإنه سيسمع صراخنا، ويأخذ بأيدينا، وهكذا نغدو نماذج حية تقتدي به في أخلاقه السامية، وهذه أعظم فضيلة لنا.

إن هذا الكتاب المتواضع الذي بين أيديكم، إنما أُلِّفَ حول نماذج من الفضائل التي بيَّنَّا حقيقتها، هذه الفضائل التي تشكلت في ظلال السنة والسيرة النبوية الشريفة ابتداءً ثم ترسخت بسير الصحابة والأولياء والعلماء والصالحين والتي كانت أشبه بمرآة نقية تعكس تلكم الفضائل الحسنة.

وعلاوة على ذلك فلم نكتف بمناقب النبي عليه الصلاة والسلام وأولياء الحق الذين ساروا في طريق التقوى، بل سردنا

٢ البخاري، التواضع، ٨، ١٠٥/ ٥٦٠٢.



أمثلة من سير الشخصيات التاريخية التي كان لها الأثر الطيب في المجتمع والحكم، وبالعديد من سير المجاهدين الذين فتحوا العالم، حتى يجد كلُّ فرد من المجتمع ضالته والنموذج الذي يألفه في سير هؤلاء العظماء على اختلاف مشاربهم وأعمالهم.

ومن الصعوبة بمكان فَهْمُ النبي عليه الصلاة والسلام فهو سلطان العالَمين، ومن اجتمعت فيه جميع حلقات الفضائل، وكذا الفضائل الموزّعة منه على أرباب الفضائل، ثم إن غايتنا الأصلية ليست بيان شخصيته عليه الصلاة والسلام بأكملها وإنما تذوُّقُ قطرةٍ من فيض بحور فضائله غير المحدودة، والتقرب خطوة إليه، وتجديد عشقنا ومحبتنا له، وعرض تعلقنا به، والسعي إلى رحمته التي لا نهاية لها، والالتجاء إليه.

ونحمد اللّه تعالى إذ منَّ علينا بأن نكون من أمة النبي عليه الصلاة والسلام بلا بدل، ولم يجعل الطريق الوحيد للحصول على محبة الرسول ﷺ هي مرتبة الصحبة التي أخبر عنها بـ"أصحابي"، وإنما تتحقق تلكم المحبة لكل من تمسك بسنته الشريفة وتأسى بأخلاقه العلية، ضمن طاقتنا كأولياء اللّه تعالى الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا لا بدّ لنا في يومنا هذا أن نحرص على تحصيل أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام السامية مفعمين بحبه، كأصحابه وأوليائه



تعالى، إضافة إلى ذلك علينا أن نحيا بهذه المحاسن التي لا تذبل ولا تبلى على مرّ العصور، فنحيا بها ونُحيي بها، فهي أقل الشكر الواجب علينا بعد أن شرفنا اللّه تعالى بالانتساب إلى أمّة النبي عليه الصلاة والسلام.

وبكل الود والامتنان أشكر كل المساهمين الذين بذلوا جهداً في تأليفنا هذا الكتاب وعلى رأسهم الأستاذ مراد كايا، ونرجو من اللّه تعالى أن يجعل جهودهم صدقة جارية.

أكرمنا اللّه تعالى جميعا بحياة مفعمة بنماذج الفضائل والسلوك الحسن التي تكسبنا رضاه تعالى، وأن يجعلنا مقربين من رسوله عليه الصلاة والسلام في الدارين، ويمن علينا بشفاعته ﷺ! .. آمين! ..

عثمان نوري طوبّاش

مارس ٢٠١٤

أُسْكدار

القسم الأول



«الإيمان والعبادة»

١ . عيش الإيمان بالحب

إن الإيمان نور العقل وصفاء الشعور وتناغم أحاسيس القلب، ولا يمكن الانتقال بسعادة من العالم الفاني إلى العالم الأبدي إلا بتوجيه هذا الإيمان.

وأما مرشدو الإيمان فهم الأنبياء والرسالات السماوية وأولياء الحق الذين ينظمون حياة القلب، فالأنبياء وأولياء اللّه والصالحون أضحوا نماذج حية مفعمة بالإيمان تنبعث بالفضائل الحية على مدى التاريخ.

إن الإيمان لطف إلهي، والامتحان مقياس لصحة هذا الإيمان، وأما حفظ الإيمان المتوقع من المؤمن بالصبر والخضوع فهو بمثابة الوصول إلى اللطف الإلهي، يعني أن اللّه تعالى يطلب من عباده عوضاً كي يجعلهم يدركون عظمة نعمة الإيمان التي منحهم إياها وقيمتها.

وآية ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (التوبة، ١١١). واضحة في إبراز هذه الحقيقة.

لذلك فإن التضحية بالمال والنفس والجاه وأشباهها برضا نفس في سبيل اللّه تعالى علامة على كمال الإيمان، والسيرُ في طريق اللّه ورسوله مجتازا مشقات الحياة وصعوباتها برضا واستسلام أهمُّ



شعار من شعائر المؤمنين، فينبغي لكل مؤمن أن يضحي عوض نعمة الإيمان بالله تعالى، لأن محاولة ادّعاء التمليك بشيء بلا عوض أو طلب مقابل شيء لم يدفع ثمنه يعتبر اشتغالا بالعبث.

ثم إن ارتقاء المؤمن إلى ذروة الإيمان مرهون بالأعمال الصالحة كالرضا عن اللّه والعبادة له والمعاملة الحسنة لعباده، لذا يُذكَر الإيمانُ والعمل الصالح معاً في القرآن والأحاديث الشريفة في معظم المواطن.

إن الإيمان لا يُجسَّد بالمعلومات السطحية والنظريات بل بالحقائق المسموعة والمحسوسة المنقوشة في القلب وبالنتيجة المنعكسة على الحياة، إن المؤمن نتيجة تفكُّره بتجليات القدرة الإلهية في العالم وأدائه العبادات بقلب حي يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقة، ويكتسب فضائل لا تنتهي في حياته.

الإيمان يسمو على العبادات كلها، لأنها لا تقوم إلا به، فهي تؤدى في أوقات معينة، فالصلاة -والتي هي أفضل العبادات- مفروضة في خمسة أوقات في اليوم، أما الإيمان فعلينا دوماً الاحتفاظ به حياً في قلوبنا، لذا لا بد لنا من اجتناب كل ما يوقع القلب في المكائد مما سواه، وحفظ إيماننا بالأعمال الصالحة والتي هي بمثابة درع.

إن الإيمان رأس مال المسلم وأثمن ما يملك، والشيطان -الذي بيَّن القرآنُ الكريم بجلاءٍ أنه عدوّنا- يسعى في محاولة حثيثة



هو وأعوانه لانتزاع جوهر الإيمان من قلب المؤمن بحيله ووساوسه التي يحوكها كلما سنحت له فرصة، وبناء على هذا فإن التمسك بالإيمان -بكل حرص وشوق مع يقظة القلب والمحافظة عليه بالأعمال الصالحة على نحو لا يتزعزع- من أهم وظائفنا.

وثمّة حاجة إلى ذكر اللّه تعالى لجعل جوهر الإيمان نقيّاً وبرّاقاً كالمرآة يعكس تجليّاته ﷻ، وأما ذكرُ اللّه تعالى فهو نقش لفظة اللّه تعالى على أطراف القلب بالعشق والشوق، حتى يمحى كل أثر للأغيار والغفلات، ويتذوّق العبد حلاوة الإيمان الحقيقية لوصول القلب إلى السكون والطمأنينة التامة.

إنَّ نشوة إيمان هؤلاء العُبَّاد المباركين والمخصوصين الذين ارتقوا إلى هذا النضج المعنوي قد تجاوز كل الحظوظ والشهوات الفانية، ومن جانب آخر فالآلام الموجعة لجميع الهموم والمعاناة ليست شيئاً عندهم.

ولنطّلع معاً على بعض الأمثلة التي تُظهر صبر وثبات ومتانة وفراسة وتضحية وعزم الرسول عليه الصلاة والسلام -معلّمنا الإيمان- والمؤمنين الصالحين الذين لهم الفضل في وصول هذه النعم إلى يومنا هذا في هذا المجال:

صور الفضائل

حين سأله بحيرا الراهب: (يا بني أسألك باللات والعزى) كان النبي ﷺ في الثانية عشر من عمره آنذاك.

فرد النبي ﷺ بقوله: **" لا تسألني شيئا باللات والعزى! فوالله إني لا أنفر من شيء كنفرتي منها "** [٣]

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يجتنب الأصنام والشرك حتى في صغره بفطرته السليمة، وأما ما بذله عليه الصلاة والسلام من العزم والجهد الذي لا مثيل له ليحيى الإيمان ويفنى فيه ويبلغه بعد فترة النبوة فحقيقة معروفة عند جميع المؤمنين.

لقد تحدّى السحرة -الذين أنكروا ألوهية فرعون- بقوة إيمانهم تعذيبه الذي فاق الاحتمال:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه ٧٢-٧٣)

ثم إنهم التجؤوا إلى ربهم مظهرين عجزهم البشري مع خوفهم من الوقوع في ضعف الإيمان، رافعين أيديهم إلى السماء ضارعين:

---

٣ ابن إسحاق، السيرة، قونية، ١٩٨١، ص: ٥٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ١، ١٥٤، انظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٥، ٣٦٢.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦). ليلتقوا بعدها بربهم في غمرة لذة الشهادة.



وأما الحواريون المخلصون بإيمانهم فقد حافظوا على إيمانهم بين أنياب الأسود في السيرك، وارتووا من نبع الشهادة.



والفئة الأخرى التي تترأس المؤمنين الأبطال الذين عاشوا الإيمان بمحبة فائقة هم المؤمنون الذين ألقاهم أصحاب الأخدود في النار، حيث أجبر ذو نواس اليهودي حاكم اليمن في العصر الرابع الميلادي أهالي نجران النصارى المؤمنين بالله وحده على تغيير معتقداتهم، ولما قاوموه أمر بحرقهم وإلقاءهم في أخاديد ملتهبة بالنار، وتنقل الآثار أن عدد القتلى على هذا النحو قد بلغ عشرين ألفا.

وأما تسمية هؤلاء الظالمين بأصحاب الأخدود فلِحفرهم الخنادق وإشعالهم النار فيها لحرق المؤمنين، لكن الذين حاولوا إخماد نور الإيمان المحفور في القلوب والمتجذر في النفوس هلكوا بحلول غضب اللّٰه وعذابه عليهم ولعنوا إلى الأبد، قال الحق تعالى:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ (البروج، ٤ ـ ٥)



إن الصحابية التي نالت اسم "أول شهيدة في الإسلام"، وعاشت الإسلام بحب عظيم في عهد النبوة هي السيدة سمية رضي الله عنها، حيث كانت قبل الإسلام تخاف من وخز إبرة لإصبعها أما حين ذاقت حلاوة الإيمان أظهرت تحملاً عظيماً على الرغم من تعذيبها بتمزيق جسدها بقضيب ملتهب ولم تتنازل عن إيمانها ألبتة، وبعدما لاقت أَمَرَّ العذاب قتلت بوحشية واستشهدت بطريقة مفجعة، وأما زوجها ياسر فعلى كبر سنّه وضعفه أظهر صبراً كبيراً يفوق الاحتمال حتى ورد نبع الشهادة، وبهذا كانت عائلة ياسر رضوان اللّه عليهم أول شهداء الإسلام.(٤) فأوفوا حق إيمانهم بعيشهم الإيمان بحب عظيم.

وأما سيدنا بلال رضي الله عنه فقد كان يصدع-وهو تحت وطأة تعذيب المشركين المجرمين الطغاة، حتى نزف جسمه وتهشم من التعذيب- بكلمات التوحيد الخالدة "أحدٌأحدٌ"، حيث كان يعيش لذة لقاء اللّه تعالى بدل الألم والمعاناة.(٥)

كان عمر رضي الله عنه قد سأل خباب بن الأرت رضي الله عنه يومًا عمّا لقي من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فنظر

---

٤ انظر: ابن حجر، الإصابة، بيروت، ١٣٢٨، دار إحياء التراث العربي، ٣، ٦٤٨؛ الزمخشري والكشاف، تح، محمد مرسي عامر، القاهرة، ١٩٨٨، ٣، ١٦٤.

٥ انظر: أحمد، ١، ٤٠٤؛ ابن سعد، ٣، ٢٣٣؛ البلاذوري، أنساب الأشراف، مصر ١٩٥٩، ١، ١٨٦.



عمر، فقال: ما رأيت كاليوم، قال خباب: لقد أُوقِدَتْ لي نار، وسُحْبتُ عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري (أي دهن الظهر).[٦]

لقد حوّل كفّار قريش جميع الحديد الذي كان بمنزل «خبّاب» -الذي كانت تصنع منه السيوف- إلى قيود وسلاسل، كان يُحمى عليها في النار حتّى تستعر وتتوهّج، ثمّ يطوّق بها جسده ويداه وقدماه.[٧]

إلا أن هيجان الشوق المنبعث من الإيمان، يطفئ جميع آلام الدنيا.

يقول خبابٌ رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردته في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت ألا تدعو اللّه لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال:

"قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن اللّه هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللّه عز وجل ...".[٨]

---

٦ ابن الأثير، أسد الغابة، القاهرة ١٩٧٠، ٢، ١١٥.

٧ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١١٤

٨ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٩، المناقب، ٢٥، الإكراه، ١؛ أبو داوود، الجهاد، ٩٧/ ٢٦٤٩



كان كفار مكة يضربون صهيباً رضي الله عنه إلى أن يغمى عليه، وقد استمر هذا التعذيب حتى الهجرة، ولما أرادَ أخيرا أن يهاجرَ مع المسلمين منعه سادةُ قريشٍ، وجعلوا عنده بالليل والنهارِ من يحرُسُه، خوفاً من أن يَهْرُبَ إلى المدينة، فلما كانت إحدى الليالي خرجَ من فراشِه إلى الخلاء، فخرجَ معه من يرْقُبُه، ثم ما كادَ يعودُ إلى فراشهِ حتى خرجَ مرة أخرى إلى الخلاءِ، فخرج معه الرقيب، ثم عاد إلى فراشه، ثم خرجَ، فخرجَ معه الرقيبُ، ثم خرج كأنه يريد الخلاءَ، فلم يخرُج معه أحد، وقالوا: قد شغلَتْه اللاتُ والعزى ببطنه الليلةَ، فتسَلَّلَ رضي الله عنه، وخرَجَ من مكةَ، فلما تأخَّرَ عنهم خرجوا يلتمسونَهُ، فعلِمُوا بهربهِ إلى المدينة، فلحقوه على خَيْلِهم حتى أدركوُه في بعضِ الطريقِ، فلما شَعَرَ بهم رقي على ثَنِيَّةِ جبلٍ، ثم نَثَرَ كِنَانَةَ سِهَامِهِ بين يديه وقال: يا معشرَ قريشٍ، لقد علمتُم واللّهِ أنّي أصوبُكُم رمياً، واللّه لا تَصِلُونَ إليَّ حتى أَقْتُلَ بِكلِّ سَهْمٍ بين يَدَيّ رجلاً منكم، فقالوا: أتيتنا صُعْلُوكاً فقيراً، ثم تخرجُ بنفسكَ ومالك، فقال: أرأيتم إنْ دَلَلْتُكُم على موضِعِ مالي في مكةَ أتأخذونه وتدعوني..؟ قالوا: نعم .. فقال: احفروا تحتَ أُسْكُفَّةِ بابِ كذا وكذا فإن بها أواقيَ من ذهب، فخذوها واذهبوا إلى فلانةَ فخذوا الحُلَّتَيْن من ثيابٍ، فرجعوا وتركوه، ومضى يَطْوِي قِفَارَ الصحراءِ، يحمله الشوقُ ويحدوهُ الأملُ في لقاءِ النبي عليه السلام وأصحابه، حتى إذا وصلَ المدينةَ، أقبلَ إلى المسجدِ فدخلَ على رسول اللّه ﷺ وعليه أثَرُ الطريق وَوَعْثَاءُ السفرِ،



فلما رآه النبيُ عليه الصلاةُ والسلام قال:

"ربِحَ البيعُ أبا يحيى .. ربحَ البيعُ أبا يحيى .. ربح البيعُ أبا يحيى .. نعم واللّه ربحَ البيع"[٩] ..، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ الْقُرْآن:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة، ٢٠٧). حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.



لقد كانت زنيرة إحدى الصحابيات اللاتي تعرضن للتعذيب وقاسوا الآلام والمعاناة على يد المشركين، وكان أَبُو بَكْرٍ ﵁ قد أعتق معه على الْإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَ رِقابٍ منهم زنّيرة، فأُصيبت ببصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا والله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فردّ الله إليها بصرها.[١٠]

وقد احتار المشركون –الذين أظلمت أرواحهم وران عليها الكفر–حين رأوا في الصباح الباكر أن زنيرة قد ارتد لها بصرها.



---

٩ ابن سعد،٣، ٢٢٦ ـ ٢٣٠؛ الحاكم، المستدرك، بيروت ١٩٩٠، ٣، ٤٥٠، ٤٥٢.

١٠ ابن هشام، سيرة النبي، بيروت ١٩٣٧، دار الفكر، ١، ٣٤٠ ـ ٣٤١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢، ٢ ، ٦٩؛ أسد الغابة، ٧ ، ١٢٣ .



وكم عانى المسلمون الأوائل من هذه الآلام والمآسي، فعامر بن فهيرة وأبو فكيهة والمقداد بن عمرو وأم عميس والسيدة لبينة والسيدة النهدية وابنتها، تعرضوا إلى تعذيب لا يخطر على بال ولا يتصوره عقل، حيث كان المشركون يربطون أرجلهم بسلاسل من حديد، ويخرجوهم إلى الصحراء وهم عراة ليتركوهم تحت الشمس الملتهبة في أحر ساعات النهار، ويضعون فوقهم صخوراً كبيرة، ويعذبوهم إلى أن يفقدوا وعيهم ويتكلموا بما لا يعقلوه، يلوون أعنقاقهم ولا يدعونهم إلا بعد أن يغلب على ظنهم أنهم قد ماتوا.[١١]

لقد حافظ الصحابة الكرام على إيمانهم رغم أنواع التعذيب والظلم التي تفوق الاحتمال، وبذلوا جهوداً ضخمة فضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل إيصال هذه النعمة الإلهية إلينا، لأنهم كانوا على إدراك ووعي تام بنعمة الإيمان وحقيقتها، وبهذا عرفوا كيف يفتحون باب العزة الإلهية في الدارين.وهكذا قضوا عمرهم الفاني تحت محتوا قوله سبحانه ونالو بذلك السعادة الأبدية:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)



١١ انظر: ابن ماجة، المقدمة، ١١؛ أحمد، ١، ٤٠٤



كان سعد بن أبي وقاص فتى بارّاً بأمه محبّاً لها، وحين دخل الإسلام قالت له أمه: يا سعد، ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين آبائك وأجدادك!، لتتركن هذا الدين أو لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت، فيتفطر قلبُك حزناً عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت بي، ويعيِّرك الناس بها أبدَ الدهر، قال: قلت: يا أماه! لا تفعلي، فأنا لا أدع ديني لشيء، لكنها نفَّذت وعيدها وامتنعت عن الطعام والشراب أياماً، كان يأتيها ويسألها أن تتبلغ بقليل من طعام أو شراب فترفض ذلك، فما كان منه ذلك اليوم إلا أن جاءها وقال:

يا أماه! إني لَعَلَى شديدِ حبي لك أشدُّ حباً للّه ورسوله، واللّه! لو كانت لك ألف نفس فخرجت منك نفساً بعد نفس ما ارتددت عن ديني، فكلي أو دعي، فلما كاشفها بهذه الحقيقة الصادمة ما كان منها إلا أن أكلت على كُره منها، فأنزل اللّه ﷻ فيه وفيها:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصيرُ. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(لقمان، ١٤ ـ ١٥).[١٢]

---

١٢ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ٤٣ ـ ٤٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ٣٦٨



وعندما أراد الرسول ﷺ الهجرة إلى المدينة، أمر عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أن ينام في فراشه، وكان قد خلفه رسول اللّه وراءه لقضاء ديونه، ورد الودائع التي كانت عنده لمشركي مكة، فخرج إلى الغار ليلا وقد أحاط المشركون بالدار، وقال له:

"نم في فراشي واتشح ببردي الحضرمي الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء اللّه تعالى"

وفي هذه الليلة وفي جنح الظلام تسللت مجموعة من كفار مكة، وفي يد كل واحد منهم سيف صارم حاد، فوقفوا أمام باب بيت النبي ﷺ ينتظرون خروجه لصلاة الفجر، ليضربوه ضربة رجل واحد، فأخبر اللهُ نبيَّه بتلك المؤامرة، وأمره بالخروج من بينهم، فخرج النبي وقد أعمى اللّه أبصار المشركين، فألقى النبيُّ ﷺ التراب على رؤوسهم وهو يقرأ قول اللّه تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس، ٩)

ولما طلعت الشمس استيقظ المشركون، وهجموا على البيت، ورفعوا سيوفهم ليضربوا النائم، فإذا بهم لا يجدونه رسول اللّه ﷺ، وإنما هو ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسألوه عن ابن عمه النبي عليه الصلاة والسلام، فأجاب: لا أعلم، طلبتم منه الرحيل عن مكة، وقد ذهب.

فغضبوا ونهروه حتى إنهم ساقوه إلى المسجد الحرام وحبسوه أياماً هناك.[١٣]



وقد قدم عامر بن مالك على رسول اللّه ﷺ المدينة، فعرض النبي عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ: لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ:

"إني أخشى عليهم أهل نجد"،

فقال عامر: أنا لهم جار (أي: سوف أحميهم)، فبعث معه رسول اللّه ﷺ سبعين رجلا من صحابته ليدعوا قبائل نجد إلى الإسلام، فسار الصحابة في الصحراء، وكانوا يجمعون الحطب نهارًا ويبيعونه حتى يكسبوا معاشهم، وينامون بعض الليل، ثم يستيقظون لعبادة اللّه بقية ليلهم، وظلوا هكذا حتى وصلوا إلى بئر معونة، وهناك أرسلوا أحدهم، ويدعى حرام بن ملحان رضي الله عنه برسالة من الرسول ﷺ يدعو فيها عامر بن الطفيل إلى الإسلام، ولكن هذا المشرك طعن حرام بن ملحان بكل غدر وحقد، فصاح ذلك الصحابي -والدم يسيل من جسده الطاهر-: **فزتُ وربِّ الكعبة،**

١٣ ابن هشام، ٢، ٩٦؛ أحمد، ١، ٣٤٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٩٢، ٢، ٣٩.



ولم يكتفِ عامر بن الطفيل بما فعله، وإنما جمع أعوانه من الكفار، وأحاطوا بالمسلمين وهم في رحالهم، وقتلوهم جميعًا إلا كعب بن زيد الذي عاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا، وكان في سرح الدعاة اثنان لم يشهدا الموقعة الغادرة، أحدهما عمرو بن أمية الضمري ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد، ورجل من الأنصار، فأقبلا يدافعان عن إخوانهما، فقتل الأنصاري، وأُسِرَ عمرو بن أمية، ولكن عامر بن الطفيل أطلق سراحه، فرجع إلى المدينة، وفي الطريق لقى رجلين ظنهما من بني عامر فقتلهما، ثم تبين لما وصل إلى رسول اللّه ﷺ أنهما من بني كلاب، وأن النبي ﷺ قد أجارهما، فالتزم الرسول ﷺ بدفع ديتهما.

حزن الرسول ﷺ وصحابته حزنًا شديدًا على هؤلاء الصحابة، وظل الرسول ﷺ يَقْنُتُ شهرًا في صلاة الصبح ويدعو على قبائل سليم، مؤجلا الرد عليهم حتى يتخلص من أعداء المسلمين في المدينة؛ لأن خطرهم أشد، ألا وهم يهود بني النضير.[١٤]



ولقد جاءت صفية يوم أحد -وقد انهزم الناس عن رسول اللّه ﷺ- وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس، وتقول: انهزمتم عن

١٤ انظر: ابن حجر، فتح الباري، دار الفكر، فؤاد عبد الباقي نشري، ٧ ، ٣٩٠، المغازي ٢٨؛ ابن هشام، ٣، ١٨٧؛ الواقدي، المغازي، بيروت ١٩٨٩، ١، ٣٤٦.



رسول اللّه ﷺ!! -وكان أخوها حمزة بن عبد المطلب قد قتل ومُثِّلَ به- فلما رآها رسولُ اللّه ﷺ مقبلةً قال لابنها الزبير:

"أرجعها كي لا ترى أخاها"

فذهب إليها الزبيرُ بنُ العوام وقال: يا أماه، إنَّ رسولَ اللّه ﷺ يأمركِ أن ترجعي، فقالت صفية بنت عبد المطلب: ولم؟ لقد بلغني أن أخي قد مات، وذلك في اللّه، لأصبرن ولأحتسبن إن شاء اللّه، فلما جاء الزبيرُ رسولَ اللّه ﷺ فأخبره بقول أمه صفية قال النبي ﷺ: **"خلِّ سبيلَها"**، فأتت صفيةُ فنظرت إلى أخيها حمزة، وقد بُقِرَت بطنه، فاسترجعت واستغفرت له.(١٥)



إن إيمان الصحابة الكرام -الذين أخذوا رسائل النبي ﷺ إلى الحكام- من الصلابة والرسوخ بحيث أضحى أسطورةً تتردد على الألسن، إذ قاموا بتبليغ رسائل النبي ﷺ للظالمين العتاة والسفاحين المتعطشين لسفك الدماء -الذين بلغ صيتُ ظلمهم وبطشهم جميعَ أنحاء العالم- دون أن يتملّكهم الخوف إلا من اللّه تعالى، كما إنهم لم يتوانوا عن الصدع بالحق تحت ظلال الأسنة والرماح بكل شجاعة وبسالة ودون خوف أو وَجَل، وفيما يلي نبذة من هذه المشاهد:

---

١٥ انظر: ابن هشام، ٣، ٤٨؛ ابن حجر، الإصابة، ٦، ٣٤٩



عندما انصرف رسول اللّه ﷺ من الحديبية، قال:

"أيها الناس، أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على اللّه، فوثب إليه حاطب رضي الله عنه، وقال، أنا يا رسول اللّه، قال: بارك اللّه فيك يا حاطب، قال حاطب رضي الله عنه: فأخذت الكتاب وودّعته، وسرت إلى منزلي، وشددت على راحلتي، وودعت أهلي وسرت.

وقصد الاسكندرية ولما وصلها قرأ على المقوقس رسالة النبي ﷺ. فناداه المقوقس إليه وجمع الأقطاب، ولنستمع إلى بقية القصة من حاطب بن أبي بلتعة:

"بعثني رسول اللّه ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فجئته بكتاب رسول اللّه ﷺ، فأنزلني في منزله وأقمت عنده ليالي، ثم بعث إليَّ وقد جمع بطارقته، فقال: إني سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه مني، قلت: هلمَّ، قال أخبرني عن صاحبك أليس هو نبيا؟ قلت: بلى هو رسول اللّه، قال: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه: أي من قومه، وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول اللّه؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم اللّه تعالى حتى رفعه اللّه إليه؟ قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال له حاطب رضي الله عنه: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعني فرعون ﴿**فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى**﴾ فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا



يعتبر غيرُك بك، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي. ولسنا ننهاك عن دين المسيح ﵇، ولكنا نأمرك به. فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضالّ ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوّة بإخراج الخبء بفتح الخاء المعجمة وهمز في آخره: أي الشيء الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، أي يخبر بالمغيبات وسأنظر، وأخذ كتاب النبي ﷺ وجعله في حق عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له.

ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد اللّه من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك»... ولم يزد عليه شيء .وقال: ارحل من عندي ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً ".[١٦]

١٦ ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٩٣، ٦ ، ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ ابن سعد، ١، ٢٦٠ ـ ٢٦١، ابن حجر، الإصابة، ٣، ٥٣٠ ـ ٥٣١



إن هذه الكلمات التي قالها حاطب ﵁ أمام الملك، والتي تنبض بالحكمة، والمستمدة من قوة الإيمان أبلغ مثال على فراسة المؤمن وشجاعة.



وأما الرسالة المكتوبة لكسرى فارس فأخذها عبد اللّه بن حذافة السهمي ﵁، فمزّق كسرى كتاب رسول اللّه ﷺ لغضبه مِن ذكر اسم محمد عليه الصلاة والسلام قبل اسمه، واستهزئ بالرسول الحامل للكتاب أشد الاستهزاء.

ولكن عبد اللّه ﵁ قال لكسرى وأعوانه بقوة الإيمان وصلابة الحق:

يا معشر الفرس، إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب ولا تملك من الأرض إلا ما في يديك، وما لا تملِكُ منها أكثر، وقد ملك الأرض قبلك ملوكُ أهل الدنيا وأهل الآخرة، فأخذ أهلُ الآخرة بحظِّهم من الدنيا، وضيع أهلُ الدنيا حظَّهم من الآخرة، فاختلفوا في سعي الدنيا واستووا في عدل الآخرة، وقد صَغَّرَ هذا الأمر عندك أنَّا أتيناك به، وقد واللّه جاءك من حيث خفتَ، وما تصغيرُك إيَّاه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي يخرجك منه،[17] ثم أمر بعبد اللّه بن حذافة أن يُخرَج من مجلسه فأُخرِج.

17 السهيلي، روض الأنوف، بيروت ١٩٧٨، ٦، ٥٨٩ ـ ٥٩٠



خرج عبد اللّه بن حذافة من مجلس كسرى وهو لا يدري ما يفعل اللهُ له ... أَيُقتَلُ أم يترك حرا طليقًا؟ لكنه ما لبث أن قال:

واللّه ما أبالي على أي حال أكون بعد أن أديت كتاب رسول اللّه ﷺ، وركب راحلته وانطلق.[18]

هذا هو اطمئنان ضمير أبطال الإسلام الذين ضَحَّوا بأنفسهم في سبيل تلبية طلب رسول اللّه ﷺ.



وثمَّة واقعةٌ أخرى مليئة بالعبر والعظات، تعرض لنا جانبا من فضل عبد اللّه بن حذافة رضي الله عنه وقوة إيمانه:

ففي السنة التاسعة عشرة للهجرة بعث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشا لحرب الروم فيه عبد اللّه بن حذافة، وكان قيصر الروم قد تناهت إليه أخبار المسلمين وما يتحلون به من صدق الإيمان واسترخاص النفس في سبيل اللّه ورسوله، فأمر رجاله إذا ظفروا بأسير من أسرى المسلمين أن يُبقوا عليه وأن يأتو به حيا .. وكان عبد اللّه بن حذافة ممن وقع في الأسر.

نظر ملك الروم إلى عبد اللّه بن حذافة طويلا ثم بادره قائلا: إني أعرض عليك أمراً !

---

18 انظر: أحمد، ١، ٣٠٥؛ ابن سعد، ١، ٢٦٠، ٤، ١٨٩؛ ابن كثير، البداية، ٤، ٢٦٣ ـ ٦، حميد الله، الوثائق السياسية، بيروت ١٩٨٥، ص: ١٤٠

قال: وما هو ؟ فقال: أعرض عليك أن تتنصَّر ... فإن فعلتَ خليتُ سبيلَك، وأكرمت مثواك، فقال الأسير في أنفة وحزم: هيهات.. واللّه إنَّ الموت لأحبُّ إليَّ ألفَ مرة مما تدعوني إليه.

فقال قيصر: إني لأراك رجلا شهما ... فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري وقاسمتك سلطاني، فتبسم الأسير المكبل بقيوده وقال: واللّه لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلتُ، قال: إذن أقتلك، قال: أنت وما تريد، ثم أُمِرَ به فصُلِبَ، وقال لقناصته -بالرومية- ارموه قريبا من رجليه، وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى، عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن يُنزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقِدْرٍ عظيمة فصُبَّ فيها الزيت، ورُفِعَت على النار حتى غلت، ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يلقى فيها فألقي، فإذا لحمه يتفتت، وإذا عظامه تبدو عارية... ثم التفت إلى عبد اللّه بن حذافة ودعاه إلى النصرانية، فكان أشد إباء لها من قبل، فلما يأس منه، أمر به أن يُلقَى في القدر التي أُلقِيَ فيها صاحباه، فلما ذهب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: إنه قد بكى ... فظن أنه قد جزع وقال: ردوه إلي، فلما مَثُلَ بين يديه عرض عليه النصرانية فأبى، فقال: ويحك، فما الذي أبكاك إذا؟!



فقال: أبكاني أني قلت لنفسي: تُلْقَى الآن في هذه القدر، فتذهب بنفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفسٌ، فتُلْقَى كلُّها في هذا القِدْرِ في سبيل اللّه، فقال الطاغية: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبد اللّه: وعن جميع أسارى المسلمين أيضا ؟ قال: وعن جميع أسارى المسلمين أيضا، قال عبد اللّه: فقلت في نفسي: عدو من أعداء اللّه، أقبل رأسَه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين جميعا، لا ضير في ذلك علي، ثم دنا منه وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أسارى المسلمين، وأن يدفعوهم إليه فدفعوا له، وقد حرر يومها ٨٠ أسيراً من المسلمين.

وقدم عبد اللّه بن حذافة على عمر بن الخطاب ﵁، وأخبره خبره، فسُرَّ به الفاروق أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى قال:

حقٌّ على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد اللّه بن حذافة .. وأنا أبدأ بذلك... ثم قام وقبل رأسه ...[١٩]

---

١٩ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٢١٢ ـ ٢١٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨، ٢، ١٤ ـ ١٥.

وثمة مقام ينسب لسعد بن أبي وقاص ﵁ في مدينة غوانغ زهو في الصين، إن المحافظة على مشاعر الإيمان قوية لدى شعوب البقع التي تواجد فيها كبار الصحابة وأولياء الله تعالى كثيراُ من الأحيان حقيقة تاريخيةا فهناك أمثلة كثيرة على هذا



إن المسلم الكامل -لما يتمتع به من فراسة المؤمن- ينظر إلى الوقائع من حوله بنور اللّه فإيمانه الذي بين جنبيه يكسبه نظرة عميقة للأحداث، فلا قيمة عنده لألم الدنيا المؤقت ومعاناتها الزائلة أمام ما يجنيه من لذة الإيمان، وبهذا فهو دوما ضمن دوّامة من حساب الخير والشر.



وأحد الأبطال الذين عاشوا الإيمان بحب عميق وهب بن كبشة رضي الله عنه، ويقع قبره رضي الله عنه في الصين.[٢٠] وكان قد أرسله النبي عليه الصلاة والسلام لتبليغ الدعوة في الصين، على بعدها عن المدينة المنورة آنذاك مسيرة سنة، وبعد أن ذهب هذا الصحابي إلى هناك ومكث مدة طويلة يبلّغ فيها قصد المدينة وهو على أمل أن يسكّن ولو قليلاً من أشواق قلبه المتلهف لرؤية رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، ووصل المدينة المنورة بعد سفر شاق دام سنة كاملة، لكنه وللأسف الشديد لم تكتحل عيناه برؤية النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان قد توفي، ولم يلبث أن عاد إلى الصين تغمره حالة روحية وشعور عميق بعظمة هذه الخدمة التي أمره عليه الصلاة والسلام بها وسلم روحه إلى بارئها أثناء تأديته لها.

٢٠ في بلدان كآسيا الوسطى وسمرقند وبخارى وتركمنستان وطشقند.



وبهذا نال وهب بن كبشة ﷺ شرف كونه أول مندوب للنبي عليه الصلاة والسلام في الصين، ولئن بقي جسده الفاني في الصين إلا أن روحه المؤمنة ظلت ممتلئة بروحانية النبي ﷺ في المدينة المنورة.



ثمّ إنّ ما جرى من حوادث بين السلطان بيازيد الثاني وأخيه السلطان جيم تعكس لنا بجلاء صلابة إيمان أجدادنا وجمال الفضائل التي رباهم عليها الإسلام:

أمضى السلطان بيازيد الثاني السنوات الأربع عشر الأولى بعد تولّيه السلطنة عام ١٤٨١ في حل المشاكل الناجمة عن ادعاء أخيه جيم أحقيته في عرش السلطنة، وهذا الوضع ألزمه أن يهمل الصليبين إلى حد ما، فعرض عليه أخوه السلطان جيم عرضا قائلاً له:

" لنقسم دولتنا قسمين، تكن أنت حاكماً على نصفها وأنا على النصف الآخر".

ولكن السلطان بيازيد رفض العرض قائلاً:

"أخي، إن الوطن ملك الأمة، إذا قسمناه فستفقد الدولة قوتها، ونصبح ولايات ضعيفة، وهذا سيكون وبالاً كبيراً، واللّه أقسم جسدي نصفين ولا يقسم تراب الأمة!".



وفي هذه الأثناء اقترف السلطان جيم خطأ بذهابه إلى رودوس إثر قبوله لدعوة لطيفة من فرسان رودوس، ولكنهم -بنقضهم العهد- باعوه أسيرا إلى البابوية، وكانت البابوية تخطط لاستخدام الأمير جيم في حملتها الصليبية ضد العثمانيين، لكن البابا إنوسنت لما أدرك أنه لن يفلح في هذا عَرَضَ عليه النصرانية، فصَعُبَ الأمرُ على السلطان جيم وحزن أشد الحزن، ورد عليه بقوله:

"واللّه لا أبدل ديني ولو أعطيتموني الدنيا كلها، وليس السلطنة العثمانية ...".

ويظهر جلياً حرصه وشعوره الديني من خلال مناجاته للّه تعالى التي فاض بها قلبه حين علم أنه أريد استخدامه ضد الإسلام من قبل الصليبين:

"يا ربِّ إن كان المشركون سيستخدمونني آلةً لإلحاق الضرر بالعالم الإسلامي، فلا تمد بعمر عبدك هذا! واقبضني إليك عاجلاً ... ".

وقد استجاب اللّه تعالى دعاءه حيث توفاه في نابولي وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وقد أوصى مَنْ حوله بهذه الوصية في اللحظات الأخيرة التي ودع فيها هذه الدنيا الفانية:

"أسمعوا خبر وفاتي كل الأنحاء بصورة واضحة مطلقة، ولتقوموا بذلك حتى تنتهي الحيل والألاعيب التي يحوكها الكافرون للقضاء على المسلمين من خلالي!. ومن ثم فلتصلوا



إلى أخي الأكبر السلطان بيازيد، واطلبوا منه أن يأخذ جسدي إلى الوطن مهما كلفه الأمر، فلا أريد أن أدفن في بلد كافر، فما حصل حتى الآن فقد حصل، وإياه أن يرد طلبي هذا! وليؤد كل ما عليَّ من الديون، فلا أريد الظهور في حضرته تعالى وعليَّ ديون، وليسامح عائلتي وأولادي وكل من خدمني، وليرضهم ...".

وقد نفّذ الأخ الأكبر السلطان بيازيد هذه الوصية.

وهذا هو التكامل والاتساق الذي يربي الإسلام أتباعه عليه! حيث يقدم فضائل كثيرة كمعاملة هذين الأخوين لبعضهما البعض، وولائهم للإيمان بكل رضا، وحب الوطن، والقدرة على التضحية بكل شيء في سبيل الأمة، والتسامح، ومحاسبة النفس والضمير نتيجة الاعتراف بالخطأ، وتفادي حق العبد، والعفو والرحمة.



كان الأخوان عروج وخضر –وهما من كبار قادة القوات البحرية في التاريخ العثماني– يشتغلان بالتجارة البحرية قبل أن يرفع علم الجهاد في البحر الأبيض، ولكن هذه التجارة كانت خطرة جداً، وفي يوم ما أُسر الرئيس عروج من قبل قراصنة رودوس، فبدأ يبحث أخوه الرئيس خضر عن حل لهذا الأمر قائلاً:

إن كان الأمر واقعا فلا مرد له، سواء جعلت قلبك واسعاً أم ضيقاً.



وبقي أخوه الأكبر أسيراً مدة طويلة بسبب حيل القراصنة الذين لم يوفوا بِوعودهم على الرغم من إرساله الكثير من الفدية، ولم يكتف الكافرون بهذا بل أرسلوا إلى الرئيس عروج راهباً يعرض عليه النصرانية، إلا أنه قال:

"أيها الغافلون الحمقى، كيف ألتحق بدين باطل تاركاً الدين الحق"، ونزل هذا الجواب صفعةً أليمة على وجوههم.

وردَّ الصليبيون الغاضبون بقولهم:

"إذاً فليأت صاحبك محمد ولينقذك"،

وربطوه على الصندل ليعمل عبدا في التجديف، فالتجأ الرئيس أوروج إلى اللّه تعالى إثر هذا وقال لهم:

"سترون كيف يساعدني ربي".

وبعد مدة قصيرة تمكن من التحرر من الأسر بجنود مجهولين من قبل اللّه تعالى معتمين بعمامات خضراء، ونال بهذا بركة التسليم والتوكل على اللّه بقوة الإيمان.

وهكذا فقد بدأ الرئيس عروج مع أخيه الرئيس خضر بمجادلة شديدة ضد قراصنة البحر الأبيض، وفي فترة وجيزة اجتمع حولهما البحارون الأشداء، وأبحروا بعيداً قائلين:

"الوقت وقت الغزو، وبسم اللّه ارفعوا المرساة".



وظهور الذين يعيشون الإيمان بحب قوي في جبهة "جاناك قلعه" مثير للغاية، يقول ضابط متقاعد في مذكراته وقد كان قاد معارك "جاناك قلعه" وأصيب فيها بجراح:

"كنا في يوم من أيام معارك "جاناك قلعه"، وقد كان الظفر على وشك أن يصبح حليفنا في المعركة التي استمرت حتى المساء، وعلى الرغم من تغلُّب العدوِّ علينا من الناحية المادية إلى حدٍّ لا يمكن تصوره، وكنت حينئذ أتعقب المراحل النهائية للمعركة من برج المراقبة، وأمام صرخات الجنود "اللّه اللّه ..." تزلزلت الآفاق وأطبقت على أصوات مدافع الأعداء التي كانت عنوانا على بطش تلك الحضارة المخيفة.

ثم كأن بي للحظة أسمع صوت وَقْعِ أقدامٍ فالتفت خلفي فإذا أنا بالمساعد علي، كان وجهه شديد الاصفرار تقرأ في وجهه علامات المعاناة الشديدة، وقبل أن أسأله عما به بادرني هو بأن أراني ذراعه التي كانت كافية لتوضيح كل شيء، خِفتُ وأحاطت بي الدهشة، كانت يده قد أصيبت من مقدار أربع أصابع من مكان الرسغ وكادت تنقطع بالكامل بل كان يحول دونَ وقوعِ يده على الأرض قطعةٌ ضعيفة من الجلد، وأما هو فقد عض على أسنانه من الألم محاولاً التغلب على الوجع، وقد مد إلي سكيناً صغيرة كانت في يده اليمنى وهو يقول: "فلتقص هذا أيها القائد !".



لقد كانت هذه الجملة على بساطتها طلباً رهيباً جداً، وكانت من الإلزام بحيث جعلتني آخذ السكين من غير اختيار وأقطع اليد المتأرجحة عن الذراع من مكان الجلد، وأقول للمساعد علي مواسياً له أثناء قيامي بهذه المهمة التي تقشعر منها الأبدان:

"لا تحزن يا مساعد علي، فَلْيَسْلَم جسمُك".

وقبل أن ينقضي الكثيرُ من الوقت ضحَّى المساعدُ علي -ليس بيده فقط بل- بجسده الطيب كله في سبيل الوطن، وقد قال وهو يغمض عينيه عن الدنيا:

"لِيَسْلَم الوطن، وليثبتنا اللهُ على الإيمان، روحي فداءٌ للوطن! ..." وظل يَكررها حتى سلَّم روحه لخالقها، وقد أصبح ما حوله كبركة صغيرة من الدماء.

هذا جندي في "جاناك قلعه" عامر القلب بالإيمان، يعلم -بمقتضى إيمانه- أن الدفاع عن الوطن وحمايته دينٌ عليه، ولا يتوانى عن وفاء دينه بنفسه وروحه، ولذا كانوا يتمسكون بدينهم كتمسكهم بسلاحهم، ويتمسكون بسلاحهم كتمسكهم بإيمانهم.



في معركة "جاناك قلعه" كان معقل مجيدية في روملي قد أبيد كله تقريباً إثر هجوم رهيب من العدو، فقسْم كبير من الترسانة كان قد طار في الهواء، واستشهد ١٦ مدفعي، وكل ما بقي من المعقل



الكبير نقيب واحد وجنديان ومدفع كسر مرفاعه لا تدخل القنبلة في فوهته.

كان النقيب قد ابتعد ليخبر القوات المركزية عن الوضع للمعقل، وتنفس كوجا سعيد الصعداء وهو ينظر إلى تقدم سفن الأعداء وهي تقذف الموت والدمار فوق البحر، وامتلأت عيناه ورفع يديه إلى السماء داعياً ربه وملتجئاً إليه وطالباً العون منه وقلبُه المتألم يرتعد من ألم العجز أمام العدو:

"يا رب! اللهم يا قادر! أعطني من القوة ما يعجز معه أي من عبادك أن يكون أقوى مني".

كان كوجا سعيد قد انسلخ من العالم الدنيوي تقريباً ... حيث أضحى في حضرة ربه تعالى فقط، وكانت الدموع التي تسيل من عينيه تقطر من خديه حتى الأسفل، وقد ردد لفترة:

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

وبعدها فجأة صاح "يا اللّه" ورفع قذيفة مدفع بحجم ٢١٥ اوقية (أي ما يعادل ٢٧٦ كيلو) تحت حيرة ودهشة صديقه، وقد صعد الدرج الحديدي ونزله لثلاث مرات، وسمع صوت طقطقة عظام صدره وكتفيه، وكان كوجا سعيد يواصل دعاءه وقد غمره العرق من ناحية وتشققت شفتاه من ناحية أخرى حيث يقول:

" يا رب أمدني بالقوة ولا تقطعها عني".



وأخيراً تغيرت نتيجة المعركة بالقذيفة الثالثة المشهورة التي ساقها إلى فوهة المدفع إذ أصيبت سفينة الانكليز المدرعةالمسماة أوشين، وقد غطى سطحَ البحر نارٌ جهنمية.

وأما جواد باشا الذي علم بالأمر وشكر اللّه تعالى، فقد طلب من كوجا سعيد عندما هنأه على ما فعله أن يعاود رفع قذيفة أخرى بنفس الثقل، لكن كوجا سعيد أجابه بقوله:

"يا سيدي! لقد كان قلبي ممتلئاً بفيض اللّه تعالى ومَظْهراً للتأييد الرباني، فكنت أشعر باختلاف في نفسي، حيث تجلّت نصرته وعنايته في مقابل دعائي، وهذا كان أمراً مخصوصاً بتلك اللحظة، لا يمكنني حمله الآن يا سيدي، فلتعذرني! ... ".

وقال جواد باشا معقباً على كلام سعيد:

"لقد قمت بعمل عظيم يا بني، اطلب مني ما تشاء أكافئك به؟ ".

وقدم الشجاع المضحي -الذي محى من قلبه كل شيء سوى عبوديته للّه تعالى- البطولة الثانية الموجودة في روحه بهذه الكلمات:

"يا سيدي! ليس لي أي طلب، إلا أن لي بُنية مصارع فلا يكفيني رغيف من الخبز، فهلا أمرتم بأن يعطوني رغيفين من الخبز حتى أكون أقوى أمام الأعداء! ..".

وقد كافأه النقيب الذي تبسم من هذا الطلب برتبة مساعد الشاويش.



ولما جاء المساء وأعطي الجميع رغيفاً واحداً وأعطي مساعد الشاويش سعيد رغيفين لم يرض بطل الإيمان الكبير بهذا، حيث رفض أن يكون مختلفاً عن أصحابه في وقت تسيطر فيه المجاعة، فأعاد واحداً من الرغيفين ولم يأخذ بعدها أبداً.

يا له من قلب نقي وشفاف... مامن شك في أن حال كوجا سعيد هذه ليس إلا عبارة عن مشاهد الإخلاص والصدق مع قوة الإيمان.

وختاما فإن الإيمان ليس ادعاءً خاويا، وإنّما هو شاهد ودليل على مستوى قلب المؤمن وكماله، وأمارته التضحية. ولأن الإيمان سر الخلود، فقد قدمت الكثير من الفضائل والبطولات التي لا نظير لها في سبيل المحافظة عليه وتقويته كالتضحية بالكثير من الأنفس على مدى التاريخ وتحمل أنواع التعذيب والمشقة البالغة في سبيل اللّه تعالى.

وثمّة حاجة ملحّة الآن وقبل كل شيء إلى أنْ نحيا الإيمان بحب عميق وشوق عارم، وعلينا حشد الهمم لتتمكن الإنسانية جمعاء من دخول دار السلام لتأدية شكر نعمة الإيمان التي منَّ اللّه بها علينا، فالمؤمن الذي يحيا الإيمان بكل حب يشعر بنفسه مسؤولاً عن حال المجتمع، ثم إنّ نيل لقاء اللّه يوم القيامة سيكون متناسباً مع مقدار التضحيات التي قمنا بها لكمال إيماننا في هذه الدار الفانية.

ليجعلنا الحق تعالى من عباده الواصلين لنشوة الإيمان والقادرين على إفناء حياتهم في هذا السبيل! .. آمين! .. .



٢ . الإخلاص

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إنما الأعمال بالنيات..."[٢١]

وفي هذا الصدد يكون قصد رضا اللّٰه تعالى في جميع أعمال الخير -وعلى رأسها العبادات- أمراً رئيسياً، وهذا لا يتحقق إلا بالإخلاص، وبعبارة أخرى لا ترقى أعمالنا اليومية إلى مرتبة العبادات إلا بربطها بغاية سامية والإخلاص فيها، ومن ثم فإن الشرط الأساسي لقبول اللّٰه تعالى لأعمالنا إنما هو الإخلاص.

الإخلاص هو تأدية الأعمال بقصد رضا اللّٰه تعالى لا غير، وعدم إسدال ستار الرغبات والأهواء النفسية عليها، إن الإخلاص للعمل كالروح للبدن، فعملٌ لا إخلاص فيه لا يعدو أن يكون تعباً وقد يكون حراما وجرما كبيرا.

والإخلاص هو وقاية القلب وحمايته من كل أهواء النفس والدنيا للتقرب إلى اللّٰه تعالى. وهو تنقية الأعمال من جميع أنواع الملوِّثات المعنوية وعلى رأسها الرياء والعجب، إذ إنها أمراض قلبية تطمس الإخلاص وتقضي عليه.

---

٢١ البخاري، الإيمان، ٤١، مسلم، الإمارة، ١٥٥.



ثم إنَّ خلْع كل آمال القلب وتعلُّقاته مما عدا اللّه تعالى وظيفةٌ عظيمةٌ، على المسلم أن يفي بها ويقوم بحقها خير قيام. لكن ينبغي ملاحظةُ أمر مهم جدا والتيقظ له دوما، وهو أن المخلصين أيضا على خطر عظيم فهم معرَّضون في كل لحظة لفقد لغلبة النفس والهوى وخسارة نقاء القلب وصفائه، فكما أنه من الصعوبة البقاء في القمة فكذلك من الصعوبة بمكان المحافظة على الإخلاص، ومن المشهور قول ذي النون المصري في هذا الشأن:

"الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم يغترون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم... ".[٢٢]

قال اللّه ﷻ: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِيْنَ عَنْ صِدْقِهِم**﴾" .

وعلى الرغم من ذلك فإن العباد الذين يتمكنون من المحافظة على الإخلاص يضحون مظهراً للكثير من اللطف الإلهي.

فالإخلاص يجعل العباد ينالون الخير الأعظم وهو رضا اللّه تعالى، لأن ما يريده اللّه تعالى من أعمال العباد قصدُ رضا اللّه تعالى أي الإخلاص، تقول الآيات الكريمة:

﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ**﴾

(الزمر، ٢)

---

٢٢ البيهقي، شعب الإيمان، بيروت١٩٩٠، ٥، ٣٤٥.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ﴾ (الزمر، ١١)

ثم إن الإخلاص يخلِّص المؤمنَ من حبائل الشيطان ومكائده، لأنه لا سبيل له إلا على ضعف إخلاصه واختلطت نيته، يقول اللّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾ (الحجر، ٣٩ـ٤٠)

ولكن اللّه يعتق المخلصين من عذاب جهنم، ويبشرهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِيْنَ﴾، فالمخلصون مستثنون من (العذاب) (الصافات، ٤٠).

إن العمل المؤدّى بالإخلاص ولو كان قليلا يكفي لتخليص صاحبه والنجاة به من العذاب، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

"أخلِص دينك، يكفِكَ القليلُ من العمل"[٢٣]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"إنما تُنْصَرُ هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم".[٢٤]

---

٢٣ الحاكم، ٤، ٣٤١.

٢٤ النسائي، الجهاد، ٤٣.

ولابد أن نوقن أن الإخلاص هو الغالب، لأن الجهود التي فيها إخلاص تُحفَظ ولا تضيع أبداً، فكم من جيوش صغيرة تغلبت على جيوش أكبر منها في العدة والعتاد بإخلاص جنودها وثباتهم و صبرهم، فالإخلاص أساس النصر والظفر.



صور الفضائل

إنَّ حياة النبي عليه الصلاة والسلام مليئةٌ بأمثلة تصور لنا روعة الإخلاص، وتوضح لنا هذه الحادثة -التي وقعت في المراحل الأولى من التبليغ- هذه الحقيقة بأحسن ما يكون:

عرض المشركون على أبي طالب أن يمنع ابن أخيه محمداً ﷺ من الاستمرار في دعوته، فكان جواب النبي ﷺ لعمه بعد أن أبلغه رغبة قريش:

"واللّه يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره اللّه أو أموت دونه... ". [٢٥]

ولما باءت محاولات المشركين -المنزعجين من بزوغ نور الإسلام- بالفشل تجرؤوا بأن عرضوا عليه مقابلاً فقام عتبة بن الوليد حتى جلس إلى رسول اللّه ﷺ، فقال:

---

٢٥ انظر: ابن الأثير، الكامل، ٢، ٦٤.



يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرِض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول اللّه ﷺ:

"قل يا أبا الوليد، أسمع"؛

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا -أي من الجن- تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول اللّه ﷺ يستمع منه، قال:

"أقد فرغت يا أبا الوليد؟"

قال: نعم، قال: **"فاسمع مني"**؛ قال: أفعلُ؛

فقال: **بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه.....﴾**



ثم مضى رسول اللّه ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول اللّه ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال:

"قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك".[٢٦]

لقد عاش النبي ﷺ حياته حريصا على تبليغ دين اللّه تعالى، ولم يطلب لنفسه شيئاً من الناس مستغنياً عن ذلك، لقد كرر نبيُّنا وسائرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قول اللّه ﷻ:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللّٰه﴾

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على اللّٰهِ﴾ [٢٧]



وها هو حال موسى عليه السلام صورة رائعة للإخلاص:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص، ٢٣)

٢٦ انظر: ابن هشام، ١، ٢٣٦

٢٧ انظر: الشعراء، ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠؛ يونس، ٧٢؛ هود، ٢٩



وكان قد أخرج سيدنا موسى عليه السلام لابنتي شعيب عليه السلام الماءَ من البئر بمشقة وسقى بهائمهما على ما كان يعانيه من التعب والجوع، فشكرتاه وابتعدتا.

وبعد ذلك دعا شعيبُ عليه السلام موسى عليه السلام إلى بيته وأكرمه، وكان موسى عليه السلام متردداً في تناول الطعام مع كونه جائعاً، فسأله شعيب عليه السلام عن السبب، فردَّ عليه موسى عليه السلام بهذا الجواب:

"إنَّا -معشر قوم- لو أُعطيت لنا الدنيا بأكملها لَمَا أبدلناها بعمل من أعمال الآخرة، فأنا لم أساعدكم لهذا الطعام وإنما لرضا اللّه تعالى"، فسُرَّ شعيبٌ عليه السلام بهذا الجواب وقال:

"إكرامنا هذا ليس مقابل مساعدتك لنا، بل لأنك ضيفنا، فكل على بركة اللّه"،

ولذا فقد قبل موسى عليه السلام -التَعِبُ والجائع- الضيافةَ من شعيب عليه السلام.

وفي هذا المثال نرى أنه ينبغي عدم تشويه الإخلاص بانتظار المقابل الدنيوي كيلا يذهب أجر الأعمال الصالحة عبثا.



يروي لنا واثلة بن الأسقع حادثة في غزوة تبوك تصح مثالاً على الإخلاص: "كان النبي عليه الصلاة والسلام يتجهز لغزوة تبوك، ولم يكن لواثلة ما يحمله فجعل ينادي: من يحملني وله سهمي؟



فدعاه كعب بن عجرة، وقال: أنا أحملك عقبة بالليل، ويدك أسوة يدي، ولي سهمك، فقال واثلة: نعم، قال واثلة: فجزاه اللّه خيراً، كان يحملني عقبى ويزيدني، وآكل معه ويرفع لي، حتى إذا بعث رسول اللّه خالد بن الوليد إلى أكيدر الكندي بدومة الجندل، خرج كعب وواثلة معه فغنموا، فأصاب واثلة ست قلائص، فأتى بها كعبَ بن عجرة، فقال: اخرج فانظر إلى قلائصك، فخرج كعب وهو يتبسم ويقول: بارك اللّه لك، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً ".[٢٨]

إن الصحابة الكرام -الذين كانوا يصرفون بسرور كلَّ إمكاناتهم في سبيل رضا اللّه تعالى- يراعون سِرّ الإخلاص إلى أبعد الحدود في خروجهم في الغزو في سبيل اللّه وفي مساعدة كل مسلم، حتى لقد حرصوا على ألا يقع في قلبهم أي غرض دنيوي -مهما صغر- لأعمال الخير التي يقومون بها.



"كانت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما تتصدق -فيدعو لها الفقير- تدعو له بالدعوة نفسها، فلّما سُئلت: لماذا تدعين للفقير؟ قالت: حتى تكون دعوتي مقابل دعوته، وتكون الصدقة خالصة للّه".[٢٩]

٢٨ أبو داوود، الجهاد، ١١٣/ ٢٦٧٦.

٢٩ نجاتي يني أل ـ حسين كايابنار، سنن أبي داوود، ترجمة وشرح، اسطنبول، ١٩٨٨، ٦، ٣٠٤



يا له من نموذج رائع على الإخلاص! والذي يبين لنا كم حرص أولئك الناس المباركون على الإخلاص في كل عمل وقول صدر عنهم.



وفيما يلي حادثةٌ رائعة أخرى تعرض لنا إخلاص علي بن أبي طالب ﵁ العميق ومراعاته له:

"عندما جلس فوق صدر أحد المشركين في إحدى المعارك، يريد قتل هذا المشرك اللعين وهو كما في بعض الروايات عمرو بن ود، ولما هَمَّ بقتله ما كان من عمرو بن ود إلا أن بصق في وجه علي بن أبي طالب والسيف في الهواء يوشك أن يهوي، فغضب عليٌّ، ودار حوله ولم يقتله،

فقال له عمرو: بصقت في وجهك لتعجل علي بقتلي!!،

قال علي: عندما بصقتَ في وجهي غضبتُ، فإن قتلتك كان قتلي لك لغضبي لنفسي، فلما هدأت اقتلك للّه".

وهكذا نرى كيف أن أخلاق المؤمن الراقية منحت الحياة لعدو كان قد شارف على الموت آنفا، فإيمان سيدنا علي ﵁ شُرِّفَ بمقاومة النفس وتنزيه النيات والغايات عن كل شائبة وإخلاصها للّه تعالى.





لقد نشب حريق كبير في سوق النحاسين في بغداد، وعَلِقَ غلامان في إحدى الدكاكين المحروقة، مع صراخ الغلامين وهما يطلبان النجدة إلا أنه لم يكن بإمكان أحدٍ مساعدتهما وإخراجهما بسبب ألسنة اللهب المستعرة، وأما صاحب الدكان فكان ينادي في الخارج وقد لفَّه اليأس: "من أنقذ الولدين فله ألف دينار".

وفي هذه الأثناء كان أبو الحسين النّوري يمرّ مصادفة من هناك، فلمّا رأى ما يحصل دخل في الحريق بدافع الرحمة والشفقة على صراخ الغلامين، فاقتحم النار دون وجل وكأنّ النّار تحوّلت روضة، وقد تمكّن وبعناية من اللّه تعالى ولطف من إخراج الولدين من الحريق أمام حيرة الجميع.

فقدَّم سيد الولدين -بامتنان غامر- الذهبَ (الدنانير) إلى أبي الحسين النوري، الذي قطَّب حاجبيه، وقال:

"خذ ذهبَك واشكُرْ ربَّك! فلو كنتُ قمتُ بهذا بغية الحصول على عَرَضٍ من الدنيا قليل لما استطعتُ انتزاع الغلامينِ من بين ألسنةِ اللهبِ، ولكني فعلتُ ما فعلتُ بغية رضا اللّه تعالى!".

ووفق هذا المثال نرى كم من الحرائق تنقلب روضاتٍ ببركة الإخلاص، ونرى كذلك أن ولوج النار لا يكون إلا لمن كانت حاله كحال إبراهيم خليل اللّه عليه السلام، أي (الإبراهيمية)، لأن عدم خوف إبراهيم عليه السلام من النار إكرام استثنائي مَنَّ اللّه تعالى به مقابل استسلام إبراهيم عليه السلام للّه تعالى بحبّه وعشقه له النابعين من صميم فؤاده.



وإثر الإخلاص يظهر في كل عمل، فالصدقة حين ينفقها صاحبها بنيةٍ خالصة لوجه اللّه تعالى تكسبه أجراً عظيماً حتى لو أعطيت لمن لا يستحقها، وتُظهر في المنفق عليه ميولاً إيجابية نحو الخير، ويشير النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة بما يلي:

"قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلةَ على زانية! قال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على غني! قال: اللهم لك الحمد، على غني، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتي، فقيل له: أما صدقتك فقد قُبِلَت، أما الزانية، فلعلَّها تستعف بها عن زناها، ولعلَّ الغني يعتبر فينفق مما أعطاه اللّه، ولعلَّ السارقَ يستعفُّ بها عن سرقته".[٣٠]

إذاً ففي بركة الإخلاص وتصفية النية في الحديث الشريف، إشارة إلى لزوم وجود الإخلاص في القلب أثناء الإنفاق، إضافة إلى ما أفادته من أن النية تكون خيرا من العمل، وللكن علينا أن نتنبه إلى مواطن دفع الصدقات وألا نظن أنه من الفضيلة إنفاق

٣٠ البخاري، الزكاة، ١٤.



الصدقة عشوائياً، بل على العكس ينبغي على المؤمن أثناء إعطاء صدقته وزكاته التحرّي ضمن إمكانياته عمّن هو محتاج والتصدق بها على من يستحقها.

وفيما يلي حادثة مليئة بالعبر تعد مظهراً للحديث الشريف الذي ذكر آنفاً:

في أحد أسفار سامي أفندي في الأناضول طلب منه رجل -بعد أن أوقف سيارته- في مدينة أورجوب مالاً لشراء سجائر، فما كان من سامي أفندي إلا أن أعطى الرجلَ المال الذي طلبه وسْط حيرةِ مَن حوله وإزاء حيرتهم هذه قال لهم:

"طالما أنه يريد ذلك فيجب إعطاؤه".

وعلى الرّغم من الإنكار القلبي من بعض رفاق السفر، وأما الفقير فقد ابتعد من هناك فرحاً قائلاً:

"سأذهب وأشتري بهذه خبزاً ".

وهذا مثال واضح على ظهور أثر الخير حين يكون المال المنفق حلالاً وتكون النية نقية وخالصة.



في عهود الإسلام الأولى كان في المدينة المنورة رجل مجهول يترك جراب مُؤَنٍ أمام أبواب بعض الفقراء كل صباح حتى اعتاد الفقراء على ذلك دون أن يعرفوا من يفعل ذلك، وفي ذات صباح لم

يجد الفقراء أكياس المؤن أمام أبوابهم، ووسط دهشتهم وتساؤلهم عن السبب تردد صدى نعي زين العابدين حفيد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما حيث تردد في أنحاء المدينة، فاجتمع أهل المدينة في بيت زين العابدين لتشييعه، ولكنهم لما غسَّلوه جعلوا ينظرون إلى آثارِ سَوادٍ في ظهره وعجبوا منه، فقالوا: ما هذا؟ فعرفوا حينئذ من خادمه أنه هو من كان يَحْمِلُ جُرُبَ الـمُـؤن ليلاً على ظهره يعطيه فقراءَ أهلِ المدينة.[٣١]

وهكذا حين يتجلى الإخلاص على قلب المؤمن فإنه يمتلئ بالرحمة والشفقة على عباد اللّه تعالى دون أن تشوهها إطراءات البشر ومدائحهم...



وكذلك نرى في حال السلطان ألب أرسلان المتعلق قلبه بربه في القصة التالية نموذجا رائعا على الإخلاص:

حين دنت ساعة اللقاء في معركة ملاذ كرد سنة ١٠٧١ لبس البياض وتحنَّط وقال: "إن قُتِلت فهذا كفني" .

أي إنه هيّأ نفسه للشهادة بشوق الإيمان الخالص وليس للشهرة بين الناس، وقد حدث جنودَه قبل المعركة بهذه الكلمات الوجيزة:

" فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن

٣١ انظر: ابن كثير، البداية، ٤ ، ١١٢، ١٢٢؛ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٣٦.



أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمضِ مصاحباً، فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يُؤمر، إنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني ووهب نفسه للّه تعالى فله الجنة أو الغنيمة، ومن مضى حقّت عليه النار والفضيحة".

وبناء على ما أُوضِح سلفاً فلن يصل من الناس إلى الخلاص الحقيقي إلا المخلص، وهم لذلك يكونون عرضة للابتلاء والاختبار على الدوام، وقد تعرض قائد الإسلام العظيم ألب أرسلان إلى امتحان من هذا القبيل بمحاولة لاغتياله أودت بحياته:

فبعد معركة ملاذ كرد وفي سنة ١٠٧٢ خرج في سفر إلى بلاد ما وراء النهر مع أعداد كثيرة من الفرسان، وحاصر قلعة خانا المتواجدة على نهر أمودريا، ولما أدرك قائد القلعة يوسف الخوازمي المنسوب إلى فرقة منحرفة وهي الباطنية بأن القلعة لن تصمد أكثر أعلن استسلامه، وعندما مَثُلَ بين يدي ألب أرسلان انقض عليه وأصابه بخنجره، إلا أنه تم قتله مباشرة، لكن السلطان لم ينج من جراحه، فمات وهو في الرابعة والأربعين من عمره في ٢٥ من تشرين الأول عام ١٠٧٢م، ويحكى أنه قال لما عاين الموت بعينه:

"ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته، إلا توكلت على اللّه في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النوبة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجمل حال، فقلت: أين من له قدرة



على مصارعتي، أو معارضتي، وإني لأصل بهذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت عليّ منيتي من الكمين"

وجاء في رواية:.. فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد عليّ، فعجّزني اللّه تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر اللّه وأستقيله من ذلك الخاطر، وعلى القادة والحكام أن يستشعروا نعائم اللّه عليهم ويتذكروا فضله وإحسانه، وينسبوا الفضل للّه تعالى صاحب المنّ والعطاء والإحسان والإكرام.

ومِمَّا لا شكّ فيه أن هذه الحال هي محاسبة قلب طاهر وضمير مخلص.



قيل لأحد أولياء اللّه: "يا مولاي، أحدثت لكم حادثة في الإخلاص أثرت فيكم؟"، فأجاب بنعم، وسرد قصته قائلاً:

"أضعت حزام نقودي في مكة المكرمة، وبت محتاجاً، وكنت أنتظر وصول نقود من البصرة، ولكن -لسبب أو آخر- لم تصل، وقد طال شعري وساءت حالي، فقصدت حلاقاً قائلاً: "هلا حسنت من شعري لوجه اللّه فليس لي مال"، وفي تلك الأثناء كان الحلاق يحلق لرجل، فقال له: اجلس هنا -مشيراً إلى مكان فارغ-، وبدأ بحلق شعري تاركاً ذلك الرجل، فاعترض الرجل على هذا، فأجابه الحلاق: سامحني يا سيدي، فأنا أحلق لك شعرك



مقابل مال، لكنه طلب مني حلق شعره لرضا اللّه تعالى، والأولوية للأعمال التي تكون للّه تعالى، وليس لها مقابل، فالأعمال المؤداة لرضا اللّه تعالى لا يقدر البشر على إيفاء عوضها.

وبعد فراغه من الحلاقة وضع بإصرارٍ في جيبي بضعة دنانير، وقال لي: "لا تؤاخذني، فهذا ما أقدر عليه، استعن بها على قضاء حوائجك". وبعد مرور أيام، وصلني المال الذي كنت أنتظره، فأخذت إلى الحلاق كيساً فيه دنانير، فقال: "لا آخذها ألبتة! ليس بمقدور أحد تعويض عمل أدي لوجه اللّه تعالى، فلتمض في طريقك مصحوبا بالسلامة". فودّعته وافترقت، إلا أني ومنذ أربعين سنة أدعو له في صلاة الليل".

وبهذا فإنه تعالى سيكافئ الأعمال الخالصة المؤداة في سبيله لا غير على نحو يليق بذاته العلية ﷻ.



كان الكثير من الأغنياء في المجتمع العثماني عند حلول رمضان، يجولون في الأحياء بعد تغييرهم لباسهم، ويطلبون من البقالة وبائعي الخضار والفواكه إخراج دفاتر السجل ويقومون باختيار عشوائي لأسماء من المقدمة والوسط والمؤخرة حيث يحصون الديون المرتبة على أصحاب الأسماء فيؤدونها عنهم، ويقولون: "امسحوا هذه الديون، وليتقبل اللّه منا".



فلم يكن صاحب الدين يعلم بمن وفى له دينه، ولم يكن الذي أدى الدين يعلم بمن أدى عنه دينه، فكان هؤلاء الأشخاص -لمعرفتهم بفضيلة صدقة السر وفضلها على صدقة العلن- حريصين على القيام بمساعداتهم سرا، وقد كان أجدادنا يخفون ما ينفقونه بأيمانهم عن شمائلهم، وينسون على الفور ما قاموا به من أعمال الخير.

يأمر كبار أولياء اللّه تعالى بنسيان شيئين:

١. انس ما قمت به من حسنات حتى لا تولِّد الخيرات والحسنات فيك الغرور والعجب.

٢. وانس الإساءات التي مورست ضدك كيلا يتبرعم الحقد والغضب في قلبك.

وختاما فالإخلاص جوهر يشق الحصول عليه وتصعب المحافظة عليه، ولذا فما يعرفه ويطلع عليه إلا الرب سبحانه وتعالى، إذ إن نوافذ القلب لا تتكشف إلا أمام الحق تعالى، والإخلاص خصلة سنية ترقى بالعبد إلى أعلى الدرجات يوم القيامة وتقربه إلى اللّه تعالى، ولا يقبل اللّه تعالى الأعمال الخالية عن الإخلاص، وإنما يضرب -يوم القيامة- وجوههم بالأعمال التي تشوبها أمراض قلبية كالعجب والرياء وكأنها خرقة بالية، وأما الإخلاص فيبارك اللّه تعالى في القليل منه ليصبح كثيراً، فيطول عمره وتدوم فيوضاته.



٣ . التقوى

تأتي التقوى كمرآة تعكس التجليات الإلهية بصورة تحمي القلب من كل ما يبعد المرء عن اللّه تعالى، فالتقوى حماية المؤمن نفسه من الأشياء التي ستلحق به الضرر والألم يوم القيامة بالالتجاء إلى حفظ اللّه وحمايته، وتمسكه بالأعمال الصالحة باجتنابه المعاصي.

ويعلمنا فخر الكائنات النبي عليه الصلاة والسلام أن القيمة الوحيدة للمرء ومعيار تفاضل الخلق عند الحق إنما هي التقوى فيقول:

"انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى". [٣٢]

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

"أنا أتقاكم وأعلمكم باللّه". [٣٣]

ويعيش ذلك وقد كانت حركاته في كل مراحل حياته منبعثة من معين التقوى، ولذا كان من يتقيد بسنة النبي ﷺ ويقتفي أثره مؤمنا حقا ومتقيا للّه تعالى حق التقوى.

---

٣٢ أحمد، ٥، ١٥٨.

٣٣ البخاري، الإيمان، ١٣؛ مسلم، الصيام، ٧٤.

وكم هو رائع قول عيسى عليه السلام يعرّف التقوى حين سأله أحدهم:

"يا معلم الخير، كيف لشخص أن يكون صاحب تقوى؟"

فأجابه عيسى عليه السلام:

"هذا عمل سهل، تحب اللّه تعالى من روحك وقلبك كما يستحق، وتعمل الصالح من الأعمال كلما استطعت، وترحم البشر جميعا كأنك الأم الشفوق بهم، وما لا ترغب بأن يُفْعَل بك فلا تفعله لغيرك، حينها تكون متقيا للّه تعالى كما يجب ".(٣٤)

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له: "أما سلكت طريقاً ذا شوك، قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى".(٣٥)

ورأس التقوى أن تفر من الشرك والكفر فرارك من النار وجحيمها، ويتجلى ذلك بتأدية الفروض كما يجب واجتناب جميع المعاصي.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"اتق اللّه حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن".(٣٦)

---

٣٤ أحمد، الزهد، ص: ٥٩.

٣٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت ١٩٨٨، ١، ٤٢

٣٦ الترمذي، البر، ٥٥/ ١٩٨٧.

وقمة التقوى حين يتوجه العبد بكل جزء منه إلى اللّه تعالى، وحين يحفظ قلبه عن كل ما يغفله عن اللّه تعالى، ولا نهاية لهذه المرتبة، وهذه هي المرحلة الأخيرة من التوكل الحقيقي التي أمرنا بها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

ولبلوغ المرء كمال التقوى لا بدّ من اجتناب الشبهات، يقول عليه الصلاة والسلام:

"لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس". [٣٧]

وينبهنا عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه بما يلي:

"لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر". [٣٨]

فينبغي على العبد -حتى يكون صاحب تقوى- محاسبة نفسه على الدوام، إذ إن شهوات النفس الأمّارة بالسوء عدو القلب اللدود، ولا يمكن التوقي من آفاتها إلا بتقوية شعور التقوى.

فيوسف عليه السلام حين قال: "معاذ اللّه" -حتى لا يقع في شباك تلك المغريات المعروضة عليه- فقد بين لنا أن الخلاص منحصر في التقوى والالتجاء إلى اللّه تعالى.

٣٧ الترمذي، القيامة، ١٩/ ٢٤٥١؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.

٣٨ البخاري، الإيمان، ١.

وقد كان فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى اللّه تعالى في دعائه أن يمنحه التقوى فيدعو:

"رَبّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْر مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيّهَا وَمَوْلَاهَا".[٣٩]

"اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى".[٤٠]

إن الأفضلية عند اللّه بين الناس لأكثرهم تقوى،[٤١] يحب اللّه تعالى من عباده المتقين،[٤٢] وهو معهم في كل آنٍ،[٤٣] ويعِد اللّه تعالى المتقين بجنات عرضها السموات والأرض،[٤٤] وأيضاً فإنه تعالى يهب عبده المتقي نورا وحكمة يفرّق بها بين الخير والشر، ويعفو عن معاصيه،[٤٥] ويرشده إلى طريق الخلاص ويرزقه من حيث لا يحتسب، وييسّر أموره، ويعفو عن سيئاته ويكرمه بأجرٍ عظيم.[٤٦]

---

٣٩ مسلم، الذكر، ٧٣.

٤٠ مسلم، الذكر، ٧٢.

٤١ انظر: الحجرات، ١٣

٤٢ انظر: آل عمران، ٧٦

٤٣ انظر: النحل، ١٢٨.

٤٤ انظر: آل عمران، ١٣٣

٤٥ انظر: الأنفال، ٢٩

٤٦ انظر: الطلاق،٢ ـ ٥.

وفيما روى أبو ذر ﵁ قال رسول اللّه ﷺ:

"إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم، فقالوا: أية آية هي يا رسول اللّه؟ فتلا: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** ". (الطلاق، ٢)[٤٧]

ثم إن أقرب الناس لرسول اللّه ﷺ المتقون، يقول معاذ بن جبل:

"خرج معي رسول اللّه لما ولاني على اليمن يوصيني وأنا راكب ورسول اللّه -ﷺ- يمشي تحت راحلتي، فلما فرغ قال:

"يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبري"،

فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول اللّه -ﷺ،

فقال: **"لا تبكِ يا معاذ، للبكاء أوان، البكاء من الشيطان"،**

ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال:

﴿إنَّ أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا﴾ "[٤٨].

يقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

"إنَّما أوليائي المتقون".[٤٩]

---

٤٧ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.

٤٨ أحمد، ٥، ٢٣٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت ١٩٨٨، ٩ ، ٢٢.

٤٩ أبو داوود، الفتن، ١/ ٤٢٤٢.

والقلب الذي يبلغ كمال التقوى يرتقي بعد ذلك إلى الشهود الرباني، ويغدو موضعاً لنظر اللّه تعالى و يجلي أسراره.

صور الفضائل

إن أولياء اللّه تعالى العالمون بحق -أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل- قضى جميعُهم حياتهم في ظلال التقوى، فقد روي عن أبي حنيفة أنه كان يمضي يوماً في السوق، فتطايرت نقطة من الطين على ردائه، فذهب إلى شاطئ دجلة، وغسلها، فقالوا له: أيها الإمام، إنك تسمح بمقدار معين من النجاسة على الرداء، وتغسل هذا القدر من الطين! قال: بلى، فتلك فتوى وهذه تقوى".

وبناء على ما تبين فإن التقوى هي إظهار المراعاة الشديدة لأوامر اللّه تعالى ونواهيه.



ويا لها من قصة مليئة بالعبرة قصة تلك المرأة التي لم تكن تتكلم إلا بالقرآن الكريم خوفاً من الوقوع في المعصية:

فروي أن الإمام عبد اللّه بن المبارك خرج ذات مرة للحج إلى بيت اللّه الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ يقول عبد اللّه بن المبارك:

وبينما أنا أسير في بعض الطريق إذا بي أرى سوادا، فتميزته فإذا بها امرأة عجوز عليها درع من صوف أسود وخمار من صوف، فلما



اقتربتُ منها قلت لها: السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

فقالت: سلام قولا من رب رحيم،

فقلت: يرحمكِ اللّه يا أمةَ اللّه ماذا تصنعين في هذا المكان؟

فقالت: ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا،

قال: فعلمت من كلامها أنها ضلت الطريق،فقلت لها: فإلى أين تريدين؟

فقالت: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،

قال: فعلمت من كلامها أنها قد قضت الحج وتريد أن تزور بيت المقدس،

فقلت لها: منذ كم وأنتِ في هذا المكان؟

فقالت: ثلاث ليالي سويا،

فقلت لها: أنا لا أرى معكِ طعاما ولا شرابا، فمن أين تأكلين؟

فقالت: هو الذي يطعمني ويسقين،

فقلت لها: فبماذا تتوضئين إذا حضرتك الصلاة؟

قالت: فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا،

فقلت لها: إنَّ معي بعض الطعام والشراب فهل أعطيكِ منه؟

فقالت: ثم أتمّوا الصيام إلى الليل،

فعلمت أنها صائمة، فقلت: لماذا لا تكلميني مثلما أكلمكِ؟

فقالت: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد،



فقلت لها: هل لي أن أحملكِ على ناقتي هذه؟

فقالت: وما تفعلوا من خير فإن اللّه به عليم،

قال: فأنخت لها الناقة لتركب عليها فلما أنخت الناقة

قالت: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم،

قال فغضضت بصري فلما ركبت

قالت: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين إنا إلى ربنا لمنقلبون،

قال: فسِرْتُ بها قليلاً فقلت لها: يا أَمَةَ اللّه هل أنتِ متزوجة؟

فقالت: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم،

قال: فسكتُّ ولم أتحدث معها حتى أدركنا القافلة فقلت لها: هذه هي القافلة، فمن لكِ فيها؟ هل لكِ فيها أحد فأناديه؟

فقالت: المال والبنون زينة الحياة الدنيا،

قال: فعلمت من كلامها أن لها أولادا في القافلة، فقلت لها: وما شأنهم؟ ما عملهم؟ ماذا يفعلون في القافلة؟

فقالت: وعلامات وبالنجم هم يهتدون،

قال: فعلمت أنهم أدلاء الركب، قال: فتحركت بها إلى العمارات والقباب التي يجلس بها المسافرون فقلت لها: نحن أمام هذه العمارات فمن لكِ فيها؟ من أنادي؟

فقالت: واتخذ اللّه إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، يا



يحيى خذ الكتاب بقوة،

قال فناديت: يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى، فأقبل ثلاثة من الشباب كأنهم الأقمار، فلما جلسوا بين يدي أمهم قالت: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه، تريد أن تضيف عبد اللّه بن المبارك،

قال: فذهب أحدهم فجاءنا بطعام وشراب فوضعه أمامي، فقالت لنا العجوز: كلوا وشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية،

فقلت: طعامكم وشرابكم حرام علي حتى تخبروني ما شأن أمكم هذه؟ ما قصتها؟

فقالوا: إن أمنا هذه منذ أربعين سنة وهي لا تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن يزل لسانها فيسخط عليها الرحمن،

فقلت: ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم".[٥٠]



ومن مقتضى التقوى اجتناب الأمور المشتبه فيها، بل حتى بعض الأشياء المباحة خوفاً من الوقوع في الحرام، ومن أمثلة ذلك:

"كان السلطان عبد العزيز خان قد وصل بالجيش وسلاح البحرية إلى مستوى باهر، وتخلص من المشاكل الداخلية بسياسة

٥٠ م. عاصم كوكسال، الكتاب والسنة، اسطنبول ١٩٩٩، ٢١ ـ ٢٥.



حكيمة، وبدأ بالترقي بالدولة نحو موقعها القديم المرموق الذي كان قد شد انتباه الدنيا بأسرها، ولذا دُعي إلى فرنسا وانجلترا.

وكان قد اصطحب معه طهاةً من مدينة بولو لأنه يرى أن طعام الأوروبيين محظور شرعاً، حيث كان سلطاناً يراعي الجانب الديني إلى حدٍ كبير.

ثم إن السلطان عبد العزيز خان يُعرف عنه أنه كان رجلاً صالحاً يقضي حياة دينية ومنضبطة، وكان من التقوى بحيث كان يشرب طوال حياته ماء زمزم بدل الماء، ويروى عنه أنه كان يأخذ ماء وضوئه معه في أسفاره إلى أوروبا، إلى جانب حرصه على تأديته صلاته وقراءته القرآن الكريم كثيراً، وعندما قتل بوحشية وجد المصحف الكريم في غرفته مفتوحاً على صفحة سورة يوسف عليه السلام، ويحتفظ بهذا المصحف الشريف المصطبغ بلون دمه في قصر توب كابي في اسطانبول الآن.

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

"يموت العبد على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه".[٥١]



وأما الشخصية التاريخية الأخرى التي تحيا بناءً على مقاييس التقوى الحساسة فهي السلطان عبد الحميد خان، حيث كان يطلب

٥١ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، فيض القدير، بيروت ١٩٩٤، ٥، ٦٦٣



إيقاظه في أي وقت كان بالليل إن طرأ أي أمر مستعجل، فلم يكن يرضيه تأجيل الأمر إلى غد، ويقول المدير العام للتشريفات الملكية السيد أسعد في مذكراته في هذا الشأن:

"ذات مرة طرقت باب السلطان منتصف الليل للتوقيع على أمر مهم، ولكن الباب لم يُفتح، وعاودت الطَّرْق بعدما انتظرت فترة، ولكنه لم يُفتح أيضاً، فراودني قلق على حياة السلطان؟، وبعد فترة قليلة طرقت الباب مجدداً، وفي هذه المرة فُتح الباب، وظهر السلطان وبيده منشفة، يجفف وجهه بها، فابتسم قائلاً: "يا بني! لقد عرفت مجيئك لأمر غاية في الأهمية في هذه الساعة، وكنت قد استيقظت في طرقكم الباب لأول مرة، إلا أني تأخرت بسبب الوضوء، إذ إني لم أوقِّع ورقة من الأوراق الخاصة بالدولة من غير وضوء ... أعطنيها أوقعها ! ..." ووقعها بعد أن سمى باللّه.

وقد نقلت زوجة السلطان عبد الحميد خان لنا ما يلي فيما يتعلق بمراعاته لهذا الأمر:

"كان عبد الحميد يضع أعلى سريره لَبِنَةً نظيفة على الدوام، حيث كان يتيمم بها عندما يستيقظ كيلا يضع قدمه على الأرض من دون وضوء إلى حين ذهابه إلى مكان الوضوء، وعندما سألته مرة عن السبب في ذلك أجابني:

" إن لم نراع نحن –باعتبارنا خليفة لكل المسلمين– مقاييس السنة، لَلَحِقَ الضرر بأمة محمد عليه الصلاة والسلام".



فحياة التقوى أوصلته في السياسة أيضاً إلى الدهاء، حيث سطرت فراسته في تاريخ الدنيا بإدارته الدولة في أصعب وأخطر السنوات.



وختاما فإن التقوى جوهر الدين ورأس المحامد كلها في الحياة، والتقوى أعظم رأس مال لسعادة الدار الآخرة، وحياة من غير تقوى تحفّها المخاطر من كل جانب، وحياة لم تعش بالتقوى تتسبب بسوء الخاتمة، والخسران الأبدي بمقتضى قول النبي عليه الصلاة والسلام: "**يموت العبد على ما عاش عليه**"، ولذا من الضروري تمضية الحياة باعتناء ودقة في هذه الدنيا الفانية للوقاية من شر الشهوات النفسية كحال الماشي في أرض ملغومة.

تجري الحروب في أزمان وأمكنة معلومة ثم ما تلبث أن تنتهي، وأما الذي يجاهد نفسه فعليه الاستمرار في جهاد التقوى طوال الحياة دون انقطاع، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ أي الموت.(الحجر، ٩٩)

أكرمنا اللّه تعالى وإياكم باليقظة الدائمة التي تحجب عنا غفلات النفس ومكائدها، ومَنَّ علينا جميعا بإقامة عبوديتنا على أساس التقوى. آمين.



٤ . التوبة والاستغفار

يميل الإنسان إلى الذنوب حين تغلبه شهوات نفسه ويفقد روحانية الإيمان، فعندما يضعف تأثير الأخلاق في الوجدان يضيع التفكير الدقيق والتعمّق الروحي، وتظهر ذاتٌ جديدة في سبيل التحلي بالاستقامة، تبدو المعاصي للوهلة الأولى كموسيقا رائعة ولكن ما يلبث أن يتغلغل وبالها في النفس دون أن يشعر بها صاحبها.

إن ابن آدم يأتي إلى الوجود طاهراً نقيا كمرآة صقيلة، ثم يأتي الدين تجلّيا رحمانيا ليحفظ النقاء الفطري من قبل الله تعالى إلى البشرية، وبالتالي فإن العبد يمكنه المحافظة على صفاء فطرته وكشف حجب الغفلة مستفيداً من روحانية الدين، وبحسب بشريته فإنه يشعر بثقل الخطأ الذي يرتكبه في ضميره، إذ تصحو مشاعر الفضائل المكنوزة في عالمه الداخلي بعد أن تتوتر، ويكتوي قلبُه بنار الندامة، ويضرع قلبه لربه تعالى بدموعه الحرَّى، هذا الاكتواء وهذه الندامة هي التوبة، وهذا التضرع النابع من القلب طلباً للعفو هو الاستغفار.

ثم إن المعاصي -كما إنها موانع من دخول الجنة- إلا أن التوبة عنها والمؤيَّدة بالأعمال الصالحة مع ما يرافقها من حرقة الفؤاد وضارعته لله تعالى تكون وسيلة للنجاة من النار.



يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر اللّه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»، (المطففين، ١٤).[٥٢]

وفي حديث آخر:

«ألا أدلكم على دائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار». [٥٣]

فلذا يلزمنا الالتجاء إلى التوبة والاستغفار على الفور، والتوجه إلى الله تعالى إثر الوقوع بأية معصية يسوقنا إليها ضعفنا البشري، فالله تعالى يثني على عباده المتقين الذين رضي عنهم فيقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران، ١٣٥)، **﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾** (الذاريات، ١٧ ـ ١٨).

---

٥٢ الترمذي، التفسير، ٨٣/ ٣٣٣٤

٥٣ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت ١، ١٣٦.

ثم إنه تعالى يبين في أكثر من آية أنه سيعفو عن عباده التّائبين بصدق، بل إنه سيبدل سيئاتهم حسنات إن أقبلوا إليه بتوبة نصوح:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان، ٧٠)

ويقول النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».[٥٤]

إلا أن أهمَّ شرط في التوبة الإخلاصُ والصدقُ، فالذي ينكث توبته على الدوام يستهزء الشيطان به، يقول الحق تعالى:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان، ٣٣)

ومن جانب آخر فإن التوبة والاستغفار وسيلة للوقاية من العذاب في الدارين، يقول عليه الصلاة والسلام:

---

٥٤ مسلم، التوبة، ٣١



«أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال، ٣٣) **فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفارَ إلى يوم القيامة».**[٥٥]

ثم إن كلاً من التوبة والاستغفار تعتبر من أشد الوسائل المؤثرة في التقرب من الله تعالى على اعتبار أنها في طبيعتها ندم عميق والتجاء صادق، إضافة إلى أن الاستغفار الذي يحتل مكاناً هاماً في التوجه إلى الله والارتقاء بالقلب مرتقى عليا، يعد الوسيلة الوحيدة للتطهر من الملوثات المعنوية، والتوبة المقبولة ترفع الحواجز والحجب المصطنعة بين العبد وربه تعالى، وتكون مظهراً لحبه تعالى، يقول الحق ﷻ: **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَّهِرِّيْن﴾** (البقرة، ٢٢٢)

ويضرب لنا النبي عليه الصلاة والسلام مثالاً على مدى فرح الله تعالى بتوبة عباده، فيقول:

«لله أشد فرحا بتوبة عبده –حين يتوب إليه– من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشراب، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».[٥٦]

---

٥٥ الترمذي، التفسير، ٨/ ٣٠٨٢.

٥٦ مسلم، التوبة ٧؛ الترمذي، القيامة ٤٩، الدعوات ٩٩.

ويبين عليه الصلاة والسلام فوائد التوبة في حديث آخر، فيقول:

«مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ».(٥٧)

لكن أهم مسألة تخص العباد هي تزكية النفس وتصفية القلب، وكل ما ذكرناه من الحديث عن التوبة والاستغفار ما هو إلا بمثابة باب لبلوغ هذه الحال، ومن الضروري بعد ولوج هذا الباب القيام بالأعمال الصالحة، بعد تأدية الفرض والواجب والسنن كما يجب، وخاصة التمتع بالخصال الحميدة كالاعتناء بحقوق العباد ورعاية حقوق الوالدين، والتصدق لوجه الله تعالى، والتعامل مع جميع المخلوقات بالرحمة والشفقة والصفح.

صور الفضائل

يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«يا أيها الناس استغفروا ربكم وتوبوا إليه، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مئة مرة أو أكثر من مئة مرة».(٥٨)

ولكن علينا أن نعرف أن توبة النبي واستغفاره على الدوام مع أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بقدر ما هو شكر لله تعالى على نعمه فإنه في الوقت نفسه درس عال في الأدب.

---

٥٧ أبو داوود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٨

٥٨ مسلم، الذكر، ٤٢

فقد كان النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام -لعلمه بأن أعظم وظيفة العبد هي ذكر الله تعالى وعبادته على الدوام- يلتجئ إلى التوبة والاستغفار في كل فرصة سانحة انطلاقاً من علمه بوجوب زيادة العبادة، وهو في الوقت نفسه يستغفر عن الأمة.



يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«إِنَّا كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، مِائَةَ مَرَّةٍ»[٥٩].

ثم إن توبة النبي عليه الصلاة والسلام واستغفارَه لم يكن عن خطأ من قبله، بل للتقرب من الله تعالى والفوز برضاه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستغفر من اللحظة والحالة السابقة لأنه في ترق معنوي دائم.



كان النبي عليه الصلاة والسلام يكثر من قول:

«**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**» في أيامه الأخيرة، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟»، فقال:

٥٩ أبو داوود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٦؛ الترمذي، الدعوات، ٣٨/ ٣٤٣٤



«خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتُها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها، ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ .»[60]

لقد علّم رسول الله ﷺ أمته أساليب الاستغفار المتنوعة وعلى رأسها سيد الاستغفار، والذي يوضحه لنا النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الآتي:

«سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ثم قال: «من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، موقنا بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة».[61]



٦٠ مسلم، الصلاة،٢٢٠

٦١ البخاري، الدعوات، ٢، ١٦؛ أبو داوود، الأدب،١٠٠-١٠١



و لا بد من تقوية التوبة والاستغفار بالأعمال الصالحة بعدهما، يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبت ذنبا عظيما فهل لي توبةٌ؟ قال: **هل لك من أم؟** قال: لا، قال: **هل لك من خالة؟** قال: نعم، قال: **فبرها**».[٦٢]

فقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام هنا الصحابي -التائب من ذنبه والمكتوي بنار الندامة عليه- بتأييد توبته بالأعمال الصالحة، مبيناً أن الحسنات والخيرات تذهب السيئات وتكفرها.



رأى فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام ليلةً في منامه بلالاً، فطلبه في الصباح وقال له:

«**يا بلال إني لأسمع قرع نعليك في الجنة فما تصنع؟!** فقال بلال: يا رسول الله، ما توضأت وضوءً إلا وصليت بعده ركعتين، فقال ﷺ: **ذلك بفضل هذا**».[٦٣]

وبناء على ما ذكر فعلينا المسارعة إلى التوبة بعد كل تقصير -من غير تضييع للوقت- إضافة إلى التوسل بالأعمال الصالحة.



٦٢ الترمذي، البر ٦، أحمد ٢، ١٣-١٤.

٦٣ ابن خزيمة، الصحيح، بيروت ١٩٧٠، ٢، ٢١٣/ ١٢٠٩.



فلقد سارع كعب بن مالك ﷺ إلى التوبة والاستغفار بسبب تأخره عن الجيش في غزوة تبوك وعدم تمكّنه من اللّحاق بها لإهماله، وقد بلغ به الندم حداً ضاقت فيه الأرض عليه بما رحبت، ولكنه ما إن بلغه نبأ قبول توبته حتى خرّ ساجداً.(٦٤) وبعد ذلك قام بالتصدق بماله أجمع لله ورسوله، إلا أن الرسول ﷺ أوصاه بإنفاق نصفه وإبقاء النصف الآخر لأهله.(٦٥)

مع العلم بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقبل إنفاق كل أحد بما يتناسب ووضعه المعنوي، لأنه لم يرد أن يضيع أجر إنفاق المتصدق إن ندم.



وكذلك فإن الله تعالى يخلص عباده التائبين والمستغفرين من كل أنواع الهموم، ويمنُّ عليهم بالكثير من اللطائف، «شكا رجل إلى الحسن الجدوبة: فقال له: استغفر الله وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أنواعاً من الهموم فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فقال: ما قلت من عندي شيئاً! إن الله ﷻ يقول في سورة نوح:

---

٦٤ ابن ماجة، الصلاة، ١٩٢.

٦٥ البخاري، المغازي، ٧٩.



﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح، ١٠ـ١٢)». [٦٦]



وأعظم الإسراف إسراف العمر بتأخير التوبة خضوعاً لإغواء الشيطان، فالمؤمن العاقل عليه الإسراع إلى التوبة، والتهيّؤ لساعة الموت.

ووفق رواية وردت عن خياط يقول لأحد أولياء الله تعالى:

«ما قولك في حديث رسول الله ﷺ: **"إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"**»، [٦٧] فأجابه: نعم، الأمر هكذا، ولكن ما هي مهنتك؟ فقال: أنا حائك، أخيط الملابس، فسأله: ما أسهل أمر في الحياكة؟ فأجاب: أن تمسك المقص وتقصّ القماش، فسأله كم مضى على قيامك بهذه المهنة؟ فرد عليه: منذ ثلاثين سنة، فقال له: إن بلغت روحك الحلقوم فهل ستكون قادراً على قص القماش حينها؟ فأجاب بلا، فقال له الولي: أيها الخياط، إنك حينها ستعجز عن القيام بعمل أمضيت فترة في تعلمه وقضيت ثلاثين سنة تؤدي ذلك بسهولة، فأنَّى لك القدرة على التوبة حينئذ ولم تقم بها أبداً في حياتك، فعجِلْ بالتوبة الآن وأنت قادرٌ عليها وإلا لن تحظى بالاستغفار وحسن الخاتمة في اللحظة

٦٦ ابن حجر، فتح الباري، ٤، ٩٨؛ العيني، عمدة القاري، بيروت، ٢٢، ٢٧٧ـ٢٧٨

٦٧ الترمذي، الدعوة، ٩٨/ ٣٥٣٧



الأخيرة، ألم تسمع قولهم: «عجلوا بالتوبة قبل الموت»؟، فتاب الحائك إثر هذا وأصبح من الصالحين».وقد أخبر النبي عليه الصلاة السلام أن الإنسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه.[68]



وقد وردت قصة عن أبي يزيد البسطامي مفادها أنه صادف طبيباً يجهز دواء فسأله: أيها الحكيم أعندك علاج لدائي؟ فرد الحكيم: وما داؤك؟ فأجاب الحكيم: مرض الذنوب، فقال الحكيم مظهرا عجزه: لا أعرف علاج الذنوب، وفي تلك الأثناء بادره مجنون كان هناك: يا عماه، أنا أعلم دواء لمرضك، فقال أبو يزيد البسطامي مستبشراً: أخبرنا أيها الشاب، فكان وصف الدواء من قبل الشاب الذي يراه الناس مختلاً لكنه في الحقيقة عارف على النحو التالي:

خذ عشرة دراهم من جذور التوبة مع عشرة دراهم من أوراق الاستغفار وضعها في هاون القلب واطحنها بمطرقة التوحيد، وانخلها بمصفاة العدل واعجنها بالدموع واطهها في فرن العشق والندامة، ومن هذا الدواء خذ خمس ملاعق كل يوم، عندها لن يبقى لمرضك أثر، فتنهد أبو يزيد البسطامي عند سماعه هذا، وقال: ويح من يظن نفسه عاقلاً ويدعي أنك مجنون.



---

٦٨ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، ٥، ٦٦٣.



وختاما فمما لا بد منه للإنسان -المجبول على اقتراف الأخطاء- التوبة والاستغفار على الدوام، وتوثيق وتقوية نياته بالأعمال الصالحة، فكل من الاستغفار والتوبة من مقتضى العبودية لله تعالى، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ(الشيطان)**﴾** (فاطر، ٥)

إن ترك التوبة إلى آخر العمر انسياقا إلى إغواء النفس ووساوس الشيطان انخداع واغترار كبير، ولذا يلزم الاستعجال بالتوبة والاستغفار والصدق فيهما والاستقامة بتأدية الأعمال الصالحة، فهذا الوضع كما أنه يقي العبد من البلاء والمصائب فإنه كذلك يمن عليه بلطف الله وكرمه.



٥ . طاعة أوامر الله ورسوله

إن السّوية المعنوية للمؤمن تتناسب وطاعته لله ورسوله، ويكتمل الإيمان بتزايد الدقة والحساسية والمحبة لأوامر الله والحرص على تطبيقها، والذين قطعوا شوطاً كبيراً في مرتبة حب الله ورسوله وطاعتهما يكونون تجليا للطائف الإلهية، يقول الحق ﷻ في الآية الكريمة:

﴿مَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

فطاعة أوامر الله تعالى وتأديتها بحب وإذعان تفيض على القلوب الراضية فيوضات الحكم والفتوحات وتجليات الحق سبحانه وتعالى، وعلى العكس فالقلوب والأبدان التي لا تتقي المحرّمات والشبهات، تنقلب مأوى للشرّ ومستنقعا لسوء الأخلاق.

صور الفضائل

أراد النبي عليه الصلاة والسلام استشارة الصحابة فيما يتعلق بغزوة بدر قبل الإقدام عليها، فقام المقداد بن الأسود حينها وتكلم بما يلي: «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون،



فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى برك الغماد [٦٩] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له. [٧٠] [٧١]

وقام سعد بن معاذ بعد المقداد فقال:

«لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخُضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله».

فسُرَّ رسول الله عندما سمع كلام سعد، ثم قال:

«سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، [٧٢] والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». [٧٣]

---

٦٩ تقع برك الغماد في مسافة تبعد عن مكة المكرمة خمسة أيام، وهي موضع قرب البحر الأحمر، ويروى أنها اسم مدينة في اليمن.

٧٠ يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد شهدت من المقداد مشهدا، لأن أكون صاحبه، أحبّ اليّ مما في الأرض جميعا»

٧١ البخاري، المغازي، ٤، التفسير ٥/ ٤؛ الواقدي، ١، ٤٨

٧٢ إن إحدى الفئتين الموعودتين في الآية السابعة من الأنفال هم المشركين أنفسهم، أي هزيمتهم وأسرهم، والفئة الثانية قافلة قريش الكبيرة القادمة من الشام.

٧٣ مسلم، الجهاد، ٨٣؛ الواقدي، ١، ٤٨ ـ ٤٩؛ ابن هشام، ٢، ٢٥٣ ـ ٢٥٤

وفي هذا أبلغ دلالة على تفاني الصحابة الكرام في محبة الله ورسوله وحرصهم على طاعتهما.



وينقل لنا أنس ﷺ حادثة تظهر لنا إخلاص وصدق واهتمام ومسارعة الصحابة ﷺ في مرضاة اللهورسوله:

«كنت أسقي أبا طلحة الأنصاري، وأبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب شرابا من فضيخ – وهو تمر –، فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: يا أنس، قم إلى هذه الجرار فاكسرها، قال أنس: «فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت»، وقد سال بعد ذلك الخمر في أزقة المدينة أنهارا.[٧٤]

فالصحابة ﷺ لما سمعوا بتحريم الخمر امتثلوا للنهي على الفور من دون تسويف ولا مماطلة فلم يقل أحدهم: سأتركه بعد أن أنتهي من شرب ما في يدي، بل أظهروا حرصا على تنفيذ مراد الله تعالى حتى إنهم أهرقوا ما تبقى في القدح أيضاً مع كل جرار الخمر التي أريقت.



٧٤ البخاري، التفسير، ٥/ ١١/ ٧٢٥٣

وروي أن فتى من أسلم قال:

«يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به، قال:

"ائت فلانا، فإنه قد كان تجهز فمرض"،

فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول أعطني الذي تجهزت به، فقال، يا فلانة أعطيه الذي تجهزتُ به ولا تحبسي منه شيئا، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك لنا فيه».(٧٥)

لقد لبى هذا الصحابي أمر النبي ﷺ بحب ووجد كبيرين، فأصرَّ على تنبيه زوجته أن تعطي كل ما يلزم ولا تدخر منه شيئاً، وبهذا أظهر حبه لرسول الله وتعلقه به وطاعته إياه إلى جانب مسارعته في أداء الأعمال الصالحة على أكمل وجه.



يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة (٧٦) فقال: ائتني بالمفتاح، فذهب

---

٧٥ مسلم، الإمارة، ١٣٤

٧٦ وهو من حاجبي البيت، وتعني كلمة حاجب الشخص الذي تعهد بوظيفة حجابة الكعبة، وأما الحجابة فتعني القيام بوظائف هامة كالعناية بالمسجد وحفظ بابه ومفتاحه، وفتح بابه للزوار في أوقات محددة، وحماية مقام إبراهيم والبضائع القيمة، وستاره الداخلي والخارجي.

إلى أمه، فأبت أن تعطيه، فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي، قال: فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فدفعه إليه ففتح الباب.

ودخل رسول الله ﷺ البيت، ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأجافوا عليهم الباب طويلاً ثم فُتح، فكنت أول من دخل، فلقيت بلالاً فقلت: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال: بين العمودين المقدمين، فنسيت أن أسأله كم صلى رسول الله ﷺ؟». [٧٧]

ففي هذا المثال تظهر الدقة الرائعة جلية في عزم عثمان رضي الله عنه الكبير في تلبية أمر رسول الله وإطاعته التي يجب تقديرها في اتباعه النبي ﷺ.



يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه».

«لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا».

لقد طبق عبد الله بن عمر الذي تعلم هذا عن النبي ﷺ طوال حياته، فلو قام أحدهم له يريد إعطاءه مكانه لا يجلس فيه أبداً. [٧٨]



---

٧٧ البخاري، الجهاد ١٢٧، الصلاة ٣٠، ٨١، ٩٦، التهجد ٢٥، الحج ٥١، ٥٢، المغازي ٧٧، ٤٨؛ مسلم، الحج ٣٨٩.

٧٨ البخاري، الاستئذان، ٣٢؛ مسلم، السلام، ٢٩



يقول الرسول ﷺ: «**إذا دعيتم فأجيبوا**».

وقد كان سيدنا ابن عمر رضي الله عنه بسماعه هذا يجيب الدعوات عرساً أوغيرها حتى لو كان صائماً.[٧٩]

أي إنه ينقض صيامه عند تلبية دعوة ما إن كان صيامه نفلاً، ثم يقضيه، وإن كان صومه فرضاً أو واجباً، فإنه يلبي الدعوة استجابة لأمر النبي ﷺ من دون إفساد صومه.



يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«**وجعلنا هذا الباب للنساء**».

وبعد هذا لم يدخل ابن عمر رضي الله عنهما هذا الباب حتى مات.[٨٠]



وعن الطفيل بن أبي بن كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر، فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله على سقاط ولا صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحد إلا سلم عليه، قال الطفيل، فجئت عبد الله بن عمر يومًا، فاستتبعني إلى السوق فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها،

٧٩ البخاري، النكاح، ٧١، ٧٤؛ مسلم، النكاح، ١٠٣.

٨٠ أبو داوود، الصلاة، ٥٣/ ٥٧١.



ولا تجلس في مجالس السوق؟ وأقول: اجلس بنا هاهنا نتحدث، فقال يا أبا بطن -وكان الطفيل ذا بطن- إنما نغدو من أجل السلام، فنسلّم على من لقيناه.[٨١]

لقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين يتصرفون بحساسية شديدة فيما يتعلّق بطاعة أوامر الله تعالى ورسوله، حيث يحددون أرضية مشتركة يمكن تعايش القلوب المؤمنة فيها بالأخوة الإيمانية من خلال زيادة الحب عن طريق إفشاء السلام، إلا أن شوق وحماس ولهف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في هذا الأمر عال إلى حد يجلب الانتباه، وما مر من الأمثلة السابقة يظهر هذا الأمر على نحو بارز



تقول الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات، ٢)

«لما نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي... الآية، جلس ثابت بن قيس رضي الله عنه في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال:

---

٨١ الموطأ، السلام، ٦؛ البخاري، الأدب المفرد، ص: ٣٤٨.



"يا أبا عمر، ما شأن ثابت، أشتكى؟" فقال سعد: إنه جاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **"بل هو من أهل الجنة"**».[٨٢]

أصاب الصحابي ثابت رضي الله عنه -والذي يتمتع بصوت جهوري- حزن عميق لظنه أنه عصى أمر الله تعالى، حيث اسودت الدنيا في عينيه، لكن بما أن صوته المرتفع من طبيعته وأصل خلقته وبما أن له قلباً صادقاً فقد كان أمره مستثنى، وقد بشره الصحابي الذي جاءه بالخبر فَسُرِّيَ عنه.

ثم إن الصحابي الذي سارع إلى معرفة ما سيؤول إليه أمر ثابت رضي الله عنه لأنموذج رائع على استعداد الصحابة الكرام للتضحية بكل ما لديهم في سبيله بعد فهمهم الإشارة منه عليه الصلاة والسلام أمراً والمسارعة إلى تنفيذه.



تقول زوجة عبد الله بن رواحة رضي الله عنها وعنه:

«دخل عبد الله بن رواحة المسجد، ورسول الله يخطب في أصحابه، وسمع رسولَ الله يقول لأصحابه: اجلسوا، وكان عبد

٨٢ البخاري، المناقب ٢٥، التفسير، ٤٩/ ١؛ مسلم، الإيمان ١٨٧.



الله عند الباب، فجلس هناك، امتثالاً لأمر النبي الكريم، ولم يدخل ليكون مع الصحابة الكرام، ولما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، شكر لعبد الله طاعته». (٨٣)



ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

«قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٩٩)

وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله ». (٨٤)

---

٨٣ علي المتقي الهندي، كنز العمال، بيروت ١٩٨٥، ١٣، ٤٥٠/ ٣٧١٧١، الهيثمي، ٩، ٣١٦.

٨٤ البخاري، التفسير ٧/ ٥، الاعتصام ٢/ ٤٦٤٢



كان سيدنا عمر رضي الله عنه إن ذُكِّر بأمر الله تعالى يكظم غيظه ويسيطر على غضبه ويطيع أمر الله تعالى مباشرة تاركاً ما يريد فعله، وبهذا كان قد قدم حساسية المؤمن الكامل في طاعة الله تعالى.



روي أن أحد الصحابة وهو هشام بن حكيم كان في فلسطين، فرأى ناساً من أهل الذمة قياماً في الشمس، فقال: ما هؤلاء؟ فقالوا: من أهل الجزية، فدخل على عمير بن سعد، وكان على طائفة الشام، فقال هشام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من عذب الناس في الدنيا عذبه الله تبارك وتعالى»،

فقال عمير خلّوا عنه.[٨٥]

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا لا يترددون لحظة واحدة أمام ما يبينه النبي عليه الصلاة والسلام بل يلبونه على الفور.



قال بعضهم: «أَمَّنَا عبد الله بن أبي أوفى على جنازة ابنته فمكث ساعة، حتى ظننا أنه سيكبر خمسا، ثم سلم عن يمينه وعن شماله، فلما انصرف قلنا له: ما هذا؟ قال: إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع، أو هكذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم».[٨٦]

---

٨٥ مسلم، البر، ١١٧ ـ ١١٩؛ أبو داوود، الإمارة، ٣٢؛ أحمد، ٣، ٤٠٣، ٤٠٤.

٨٦ الحاكم، ١، ٣٦٠؛ ابن ماجة، الجنائز، ٢٤.



إن جواب عبد الله بن أبي أوفى جليٌّ في إظهار حرص الصحابة على الاقتداء برسول الله، فعاشوا حياتهم وأقاموا أمورهم وفق القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، ولذا كانت جميع أفعالهم وأقوالهم وحركاتهم تستند على أدلة الكتاب والسنة، وكذلك نحن بحاجة دوما إلى الأخذ بالسنة في كل أمورنا، وإلى إقامة حياتنا الفكرية والعلمية والروحية في ظلال القرآن والسنة، فسموُّ طباعنا ورقيُّ شخصياتنا وكمالُ إسلامنا يكون بقدر ارتباطنا بالقرآن الكريم والسنة.



وفي رواية قال النبي ﷺ لأصحابه في صلاة العشاء:

«اجتمعوا غداً لأداء الصلاة، فعندي أموراً أريد إخباركم بها، فقال أحد الصحابة لرفاقه: يا فلان خذ عن رسول الله ما يقوله أولاً وللثاني وأنت ما يقوله بعد ذلك وللثالث وأنت مايليه كيلا يفوتنا شيء من كلام رسول الله ﷺ».[٨٧] (أو كما قال رسول الله ﷺ).

ومن المثير للإعجاب والتقدير هذا الحرص الذي يبديه الصحابة الكرام فيما يتعلق بمعرفة أوامر النبي ﷺ وتطبيقها، ثم إنه وبفضل هذه الجهود العظيمة التي بذلها السلف الصالح صار بمقدورنا أن نتعرف عن كثب على جميع تصرفات النبي ﷺ وأحواله، رضي الله عنهم أجمعين.



---

٨٧ الهيثمي، ١، ٤٦



وعن أبي بردة قال: أغمي على أبي موسى، فأقبلت امرأته أم عبد الله تصيح برنة، ثم أفاق فقال: ألم تعلمي؟ وكان يحدثها أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا بريء ممن حلق وصلق وخرق**».[٨٨]

يا لها من حساسية إيمانية عالية للإيمان، فحتى وهو يصارع الموت يحاول تطبيق أمر رسول ﷺ.



وقد روي أن دحية بن خليفة خرج من قريته المزة بدمشق إلى قدر قرية عقبة في رمضان، ثم أفطر وأفطر معه الناس وكره آخرون أن يفطروا، فلما رجع إلى قريته قال: «والله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظنني أراه، إن قوما رغبوا عن هدي رسول الله ﷺ وأصحابه»، يقول ذلك للذين صاموا، ثم قال عند ذلك: «اللهم اقبضني إليك».[٨٩]



يقول بشْرٌ الحافي رحمه الله تعالى: «رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بِشْرُ! أتدري لم رفعك الله بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هذا الذي بلغك منازل الأبرار» .[٩٠]



---

٨٨ البخاري، الجنائز، ٣٧، ٣٨، مسلم، الإيمان، ١٦٧؛ النسائي، الجنائز، ١٧.

٨٩ أبو داوود، الصوم، ٤٧/ ٢٤١٣.

٩٠ ماهر إز، التصوف، اسطنبول ١٩٦٩، ص: ١٨٤.



ويبين سيدنا عبد الخالق الغجدواني العبودية الحقيقية على نحو رائع، حيث سئل يوماً: أنلبِّي ما ترغب به أنفسنا أم ما ترفضه؟ فأجاب حضرته السائل: إن من الصعوبة بمكان التفريق بين هذين الأمرين، إذ إن النفس تموه على الأكثرية من الناس فيما يتعلق بمعرفة أهي رغبات رحمانية أم شيطانية، ولذا فلا يُقْدِم الإنسان إلا على ما أمر الله تعالى به دون ما نهى عنه، وهذه هي العبودية الحقة.



فينبغي على سالكي طريق الحق جعل إطاعة أوامر الله تعالى وخدمة إخوانهم المسلمين والنصح لهم دستورا لا يحيدون عنه، إضافة إلى وجوب بذل الجهود للحصول على رضا الحق تعالى من خلال وسائل السعادة الأبدية هذه، قال داوود الطائي يوماً لرجل صالح يداوم على حضور مجلسه وهو معروف الكرخي: «إياك أن تترك العمل، فإن ذلك الذي يقرّبك إلى رضا مولاك، فقلت: وما ذلك العمل؟ فقال: دوام طاعة ربك، وخدمة المسلمين، والنصيحة لهم».



وخلاصة القول أن الطاعة أعظم علامة على حب الله تعالى، فالمؤمن الذي يحب ربه ﷻ يكون في طاعة دائمة مدفوعا بقانون «المحب لمن يحب مطيع»، فعبادة قليلة مؤداة بالطاعة والإذعان أفضل عند الحق من عبادة كالجبال خالية عن الطاعة والإذعان، ومن هذا



المنظور فإن العبودية تبدأ بالطاعة والاستسلام، فطرد إبليس من الرحمة الإلهية الكبيرة كان لخللٍ في طاعته وانصياعه وليس لنقص في عبادته.

إن اجتهاد الصحابة الكرام ﷺ في حب الله ورسوله وطاعته جعلهم شخصيات خالدة ونماذج للأمة جمعاء يقتدى بها.

إن ما يقوله مولانا في مثنويه من إطاعة الجمادات للأوامر الربانية تعبير رائع:

«ألست ترى، أن السحاب والشمس والقمر والنجوم كلها تدور في فلك معلوم، وكل واحدة من هذه النجوم اللامعدودة تطلع في وقتها ولا تتأخر عن أوقات مغيبها ولا تسبقها.

كيف لم نعرف وندرك هذه الخوارق من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ حيث إنهم حولوا الحجر والعصا إلى ذي عقل، فتأمل هذا وقس سائر الجمادات على العصا والحجر.

ثم إن طاعة قطع الحجر نبينا عليه الصلاة والسلام، وطاعة العصا موسى عليه السلام تشف عن مدى خضوع سائر المخلوقات التي نحسبها جمادات لأوامر الله تعالى.

فهي تقول بلسان حالها: «نحن نعرف الله تعالى ونطيعه، ولسنا أشياء خلقت عبثاً، إننا جميعنا نشبه البحر الأحمر، حيث إنه مع كونه



بحراً تمكن من منع فرعون عن بني إسرائيل».

ألم تكن كل شجرة أو حجر يمر عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام يسلم عليه، إذاً وبهذا اعلم أن كل ما تعرف أنه جمادٌ إنما هو ذو روح».

ما يعني أنه ليس الإنسان والجان فقط هما من يطيعان الله تعالى ورسوله بل الحيوانات والجمادات أيضاً تفعل ذلك، ومن المؤسف اختناق الإنسان في مستنقعات العصيان في حين أن جميع المخلوقات تسعى نحو الطاعة.



٦ . الدقة في العبادات

لقد خُلق الإنسان ليكون قمة الصنعة الإلهية في هذا العالم المعزز بالنقوش اللامتناهية لتدفقات العظمة والقدرة الإلهية، وكلفه بالعبادات ليقوم بشكره سبحانه على هذه الخلقة، وليوفر له سبل الترقي بصحبة الله تعالى، لقد أمره الحق تعالى بالالتجاء إلى الأعمال الصالحة في كثير من الآيات كي يتخلص من الخسران الأبدي، وينال السلامة والإنابة والطمأنينة في القلب.

لذلك كانت العبادات رمز وفاء من العبد لربه، يُظهر بها صدق عهده لربه ﷻ في الأزل، وهي حالة من الحب تُقرِّب المؤمن من الحق تعالى، ومن ناحية أخرى تسكب الرضا والسكينة في قلب المؤمن، وهي منهل فيض ضروري للموازنة القلبية وتأمين السلامة، والارتقاء بالعبودية مرتقا ساميا.

وبالتالي فلا بد أن تستأثر عباداتنا بعنايتنا الفائقة وتحتل في سلم أولوياتنا المكانة الأعلى والأهم.

صور الفضائل

وبناء على أهمية العبادات لابد أولا أن نتطرق إلى وجوب الدقة والتحري في مسألة الوضوء، لأن إهمالَ الوضوء وعدمَ الاعتناء به ينعكس سلبا على العبادات المترتبة عليه.



وقد جاء في الحديث: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة فقرأ فيها سورة الروم فلبس بعضها قال:

«إنما لبس علينا الشيطان، القراءة من أجل أقوام يأتون الصلاة بغير وضوء، فإذا أتيتم الصلاة فأحسنوا الوضوء».[٩١]

ما يعني أن القيام بالطهارة والوضوء على أحسن وجه قبل الصلاة أمر غاية في الأهمية من وجهة صحة العبادات.

ومن الآداب المرعية أن يكون الإنسان على وضوء دائماً ما أمكن، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحب القيام بأعماله كلها وهو متوضئ.

وحسب ما يرويه أبو جهيم رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ أقبل من نحو بئر جمل (٢)، فلقيه رجل، فسلم عليه، فلم يرد عليه، حتى أقبلَ على جدار، فمسح بوجهه ويديه، ثم رد عليه السلام.[٩٢]

فقد حرص النبي ﷺ على أن يكون على شيء من طهارة مع عدم وجوبها عليه لرد السلام ولكنها فضيلة وأدب كان يراعيه عليه الصلاة والسلام.



٩١ أحمد، ٣، ٤٧١/ ١٥٨٧٢، النسائي؛ الافتتاح، ٤١؛ شرح المجتبى، ٢، ١٥٦.

٩٢ البخاري، التيمم، ٣.



يقول ابن عباس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يخرج يريد الماء، فيتمسح بالتراب، فأقول: يا رسول الله، إن الماء منك قريب، فيقول: وما يدريني لعلي لا أبلغه». [٩٣]

ووفق رواية أخرى كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام إن وجب عليه الغسل يضرب يديه في الحائط للتيمم كيلا يبقى من غير طهارة حتى الغسل. [٩٤]

هذا هو أفق الطهارة المادية والمعنوية التي علمنا إياها فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام.



خرج ذات يوم رسول الله ﷺ إلى المقبرة، فسلم على أهلها،

وقال: **"سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنَّا قد رأينا إخواننا"**

قالوا: أولسنا بإخوانك يا رسول الله!

قال: **"أنتم أصحابي، وإخواني قومٌ لم يأتوا بعد، وأنا فرطكم على الحوض"**

قالوا: وكيف تعرف مَنْ لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟

---

٩٣ أحمد، ١، ٢٨٨، ٣٠٣، الهيثمي، ١، ٢٦٣.

٩٤ الهيثمي، ١، ٢٦٤.



قال: **"أرأيتم لو أن رجلا له خيل غُرٌّ محجلة بين ظهري خيل بهم دهم، ألا يعرف خيله؟"**

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: **"فإنهم يأتون غرا محجلين من أثر الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يذاد البعيرُ الضالُّ، أناديهم: ألا هلم، فيقال: إنهم قد أحدثوا بعدك، وأقول: سحقا سحقا"**».[٩٥]

ما يعني أن المؤمنين الذين يعتنون بأمر الوضوء ويحسنونه ينالون حب رسول الله عليه الصلاة والسلام ويفوزون بالأخوة التي تحدث عنها، وأما من لم يهتم بشأن الوضوء والعبادات ويضِلُّ الطريق فسيطردون يوم القيامة كما تطرد البعير الضالة، ويشعرون بالمهانة من جراء إبعادهم عن النبي عليه الصلاة والسلام.



عن أبي حازم، قال:

«كنت خلف أبي هريرة، وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم هاهنا؟ لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن، حيث يبلغ الوضوء**»[٩٦]

٩٥ مسلم، الطهارة، ٣٩، الفضائل ٢٦.

٩٦ مسلم، الطهارة، ٤٠/ ٢٥٠.

وكم تحمل كلمات علي ﵁ الآتية في طياتها حرص النبي ﷺ وحبه للعبادة: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت سمرة يُصلي ويبكي حتى أصبح». [٩٧]

يا له من تعبد عظيم لا يشوبه الضعف في حضر ولا سفر.

يقول الحق تعالى:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾، (الحجر، ٩٩).

﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ (العلق، ١٩).



لقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على عبد الله بن رواحة ﵁ الذي كان شديد العناية بالصلاة، فخاطبه مثنيا عليه:

«**رحِمَ الله أخي عبد الله بن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ**». [٩٨]



وعن جرير بن عبد الله قال:

كنا جلوسا عند رسول اللهِ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فَقَالَ لَنَا:

«**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في**

---

٩٧ ابن خزيمة، الصحيح، بيروت ١٩٧٠، ٢، ص: ٥٢.

٩٨ الهيثمي، ٩، ٣١٦



رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها» - يعني العصر والفجر -

ثُمَّ قَرَأَ جرير:

﴿...وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ (طه،١٣٠) .[٩٩]

إذاً فعنايتنا واهتمامنا الفائق بالطاعاتوالعبادات وقيامنا بها على أحسن وجه وسيلة مهمة لرؤيتنا ربنا ﷻ.

فينبغي أن يُنظَر إلى كل عبادة نؤديها على أنها تأشيرة دخول الجنة، وذلك حتى نفي حقها من الأداء وتنفعل بها -حبا بها وشوقا لها- أرواحنا وأفئدتنا.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إذا أحسن الرجل صلاته فأتم ركوعها وسجودها قالت: حفظك الله كما حفظتني، فترفع، وإذا أساء الصلاة فلم يتم ركوعها ولا سجودها قالت: ضيعك الله كما ضيعتني، فتلف كما يلف الثوب الخَلِقُ فيضرب بها وجهه». [١٠٠]

---

٩٩ البخاري، المواقيت، ١٦، ٢٦، التفسير ٥٠/ ١، التوحيد ٢٤؛ مسلم، المساجد ٢١١/ ٦٣٣.

١٠٠ السيوطي، الجامع الصغير، مصر ١٣٢١، ١، ٥٨/ ٣٦٤.



تقول الآية الكريمة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤-٥). أي يؤدونها بغفلة.



إنَّ تأخيرَ الصلاة لآخر وقتها، وأداءَها على مَضَض، وتأديةَ الفرض فقط كأنما يريد التخلص منها خصلةٌ خبيثة تزرعُ في نفس الإنسان النفاق، يقول علاء بن عبد الرحمن: «دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر، فقام يصلي العصر، فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذَكَرَها فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة المنافقين[١٠١]، يجلس أحدهم حتى إذا اصفرَّت الشمسُ وكانت بين قرني الشيطان -أو على قرن الشيطان- قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».[١٠٢]



كان عمر رضي الله عنه ينصح عماله فيقول:

«إن أهم أمركم الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيعُ ...».[١٠٣]



---

١٠١ النفاق المذكور في الحديث علامة على النفاق في العمل لا الاعتقاد.

١٠٢ الموطأ، القرآن الكريم، ٤٦؛ مسلم، المساجد، ١٩٥.

١٠٣ الموطأ، وقوت الصلاة، ٦



روي عن المسور بن مخرمة أنه دخل على عمر بن الخطاب ﵁ من الليلة التي طعن فيها، فأيقظ عمر لصلاة الصبح، فقال عمر: نعم، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى عمر وجرحه يثعب دماً. (١٠٤)



يقول علي ﵁ على منبر الكوفة: «إذا كان يومُ الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث، ويثبطونهم عن الجمعة، وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد، فيكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين حتى يخرج الإمام، فإذا جلس الرجل مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من أجر، فإن نأى وجلس حيث لا يسمع، فأنصت ولم يلغ له كفل من أجر، وإن جلس مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فلغا ولم ينصت كان له كفل من وزر، ومن قال يوم الجمعة لصاحبه: صه، فقد لغا، ومن لغا فليس له في جمعته تلك شيء، ثم يقول في آخر ذلك: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك». (١٠٥)

ومما لا شك فيه أن من يبكر في الوصول إلى المسجد -لاهتمامه بصلاة الجمعة، فيتفكر أثناء استماعه للإمام ويجلس في مكان يسهّل عليه ذلك، بكل خشوع وتأدب- أفضل وأكثر ثواباً ممن لم يفعل مثل هذا.



---

١٠٤ الموطأ، الطهارة، ٥١؛ الهيثمي، ١، ٢٩٥؛ ابن سعد، ٣، ٣٥.

١٠٥ أبو داوود، الصلاة، ٢٠٩/ ١٠٥١



يقول مجاهد من كبار التابعين وعالم التفسير والقراءات رحمه الله:

«ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت، فطاف سباحة».[١٠٦]



ثم إن هذه الذكرى التي كتبها الشيخ سعدي في أثره المسمى «كولستان»، تفيد عدم هدر العبادات بالأخطاء القلبية إذ يقول:

«كنت في صغري مولعا بالزهد والتقوى وعبادة الليل، وذات ليلة كنت جالساً بقرب والدي، لم أترك القرآن الكريم من يدي، وكان البعض من حولي نيام، فقلت لوالدي:

لا يقوم أي منهم ليصلي ركعتين تهجداً، ينامون كأنهم موتى، فقطَّب أبي حاجبيه عقب قولي هذا، وقال: ولدي سعدي، لو أنك نمت أنت أيضاً عوضاً عن الثرثرة والتكلم في حق الغير، فهؤلاء الذين تنظر إليهم بعين الازدراء حتى لو باتوا في حرمان من الرحمة الإلهية الآن إلا أن الكتبة الحفظة لا تكتب عليهم شيئاً، في حين أنها كتبت في صحيفة عملك استصغارك إخوانك وغيبتك إياهم».



لقد كان المسلمون يعتنون ويهتمون بالعبادات حتى في أوقات الحروب، حتى أضحوا مظهراً لعون الله تعالى، يصور ترافيجاني

١٠٦ علي المتقي، ١٣، ٤٧١/ ٣٧٢٢٨؛ الذهبي، السير، ٣، ٣٧٠.



البندقي جيش يلدرم بيازيد الباسل والمنتصر كما يلي:

«لا وجود للخمر والقمار والفحش في الجيش العثماني كما الحال عندنا، فهم -إلى جانب اجتهادهم في التدريبات العسكرية- في ذكر دائم لاسم ربهم الأعظم والأعلى، ويشتغلون بالعبادة ليلاً ونهاراً، لهذا ينتصرون على الدوام».



لقد تم افتتاح مسجد بيازيد ذات جمعة للعبادة وقد كان بيازيد خان الثاني ابن السلطان محمد الفاتح أول من صلى بالناس فيه، يذكر لنا هذه الحادثة المؤرخ أوليا شلبي فيقول:

«لما اكتمل بناء المسجد ذات جمعة فُتح للعبادة باحتفال كبير، فقال بيازيد: من لم يترك سنة العصر والعشاء القبلية طيلة حياته أبداً فليؤم الناس في هذا الوقت المبارك، ولما لم يظهر من الجماعة العظيمة أي أحد قال مضطراً: نحمد الله أنا ما تركنا هذه السنن لا في الحرب ولا في السلم أبدا، وتقدم فأَمَّ الناس».



وكان السلطان محمد رشاد الرابع من سلاطنة العثمانيين قد أمر السيدة صفية -معلمة السلاطين التي عينها لتربية وتنشئة أولاده- بما يلي:



«إني لا أحل الملح والخبز الذي أطعمه لمن لا يصلي ولا يصوم، لتُبلَّغ رغبتي هذه من قبل السيدة المعلمة إلى التلامذة الأمراء والأميرات». [١٠٧]

فلم تُنسِ المكانةُ والمقام الدنيوي هؤلاء الكبارَ الاعتناءَ بالعبادة، ولم تثنهم عن صرف الجهود التي ستضحو زاداً للآخرة في كل عمل يقومون به كالصلاة والصيام.



وأحد الأمثلة الحية على الدقة والاهتمام في العبادات يعود إلى مجاهد القفقاز المجيد الشيخ شامل، إذ إنه أُصيب بالكثير من جراح حربة وسيف ورصاص في مدافعة غيمري عام ١٨٢٩، حيث سحقت رئتَه حربة دخلت صدره وخرجت من ظهره، علاوة على كسر أضلاعه وعظمة الترقوة اليمنى لديه، ولم يتمكن من العودة إلى حالته الطبيعية إلا بعد مضي ستة أشهر بمعالجة من والد زوجته الذي كان طبيباً جراحاً، وبعد مضي خمسة وعشرين يوماً على إصابته -كان قد قضاها في غيبوبة- كان أول ما قاله لأمه التي وجدها عنده بعدما فتح عينيه في نهاية اليوم الخامس والعشرين: يا أماه هل فات وقت الصلاة؟. [١٠٨]



---

١٠٧ صفية أونووار، (مذكراتي في القصر)، اسطنبول ١٩٦٤، ص: ٢١.

١٠٨ إبراهيم رفيق، الأنفاس الأسطورية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص: ٧٨.



كان آخر أيام رمضان وكانت معركة «جاناك قلعه» على أشدها، حين استدعى قائد الجبهة وهيب باشا إمام الفرقة التاسعة للمثول بين يديه، وطلب إليه على كره منه والحزن يلفه:

«يا سيدي الإمام غداً عيد الفطر، وكما تعلم فإن الجنود يرغبون في أداء صلاة العيد جماعة، ومهما قلتُ لهم فلن يتراجعوا عن طلبهم، إلا أن أمرا كهذا فيه من الخطورة ما لا يخفى، أي إنها فرصة لإبادة جماعية لا تعوَّض للعدو، فهلا بينت أنت الأمر للجيوش بأسلوب مناسب، ولما خرج الإمام من مجلس الباشا لقي شخصاً ذا طلعة بهية، قال له: يا بني إياك والتحدث إليهم، فعسى أن يأتي يوم يكون فيه خيراً، يفعل الله ما يريد، «فيقضي الله أمراً كان مفعولاً».

وفي الصباح التالي شهد الجميع تجليا إلهيا أوقعهم في حيرة، حيث نزلت من السماء كتل عظيمة من السحب، وغطت الجنود المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم شغفا بعبادة الله وحرصا على مرضاته، فلم يكن بمقدور قوات الأعداء الذين يراقبوهم بالمناظير رؤية شيء غير السحب البيضاء، وقد كانت أصوات التكبير التي تتعالى في صلاة العيد حين أقيمت تبعث في نفوس الجنود شعورا معنويا فياضا ذلك الصباح وهي تهز الأرجاء وتملأ الفضاء وتبلغ صفوف العدو كصيحة رجل واحد فتبعث في نفوسهم الرعب والهلع.

وفي هذه الأثناء ظهرت حالة من الفوضى العارمة بين صفوف



قوات الجيش البريطاني، حيث كان في الجيش البريطاني جنود مسلمون -من بعض الدول التي تحتلها بريطانيا- تم تضليلهم وضمهم في الجيش البريطاني، فلما سمعوا أصوات التكبير والتوحيد وأدركوا حقيقة الأمر ثاروا، فقام البريطانيون العاتون الواقعون في حيرة من هذا بقتل بعضهم وإرسال البعض الآخر إلى آخر الصفوف.

إن الإيمان الذي أضحى حصناً منيعاً في صدور جنود الإسلام وأسهم في أدائهم عباداتهم في ميادين الجهاد أنزل عليهم رحمة إلهية ونصرا منه تعالى شملهم أجمعين.



يبين النبي عليه الصلاة والسلام أن سرعة اجتياز الناس للصراط المستقيم سيكون حسب اهتمامهم بالعبادات فيقول راوي الحديث: سألت مرة عن قوله ﷻ: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾، فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهم: أن رسول الله ﷺ، قال:

«**يَرِدُ الناسُ النارَ ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه**».[١٠٩]



---

١٠٩ الترمذي، التفسير، ١٩/ ٣١٥٩.



والحاصل أن الغاية من العبادة والعبودية أن يكون العبد بقلبه مع الله تعالى على الدوام، أي معرفة الله ومحبته، فالعبادات تكسب الشخص اللطف وحسن الخلق وتجذر الإيمان في القلب، ثم إن العبادات المؤداة بحماس واشتياقٍ تعمِّق الروحَ وتقرِّب العبدَ من الرب تعالى، حتى يصير الحقُّ تعالى بصر هؤلاء العباد الذي به يبصرون، وسمعه الذي به يسمع، أي تضحو رؤاهم وأسماعهم وأفكارهم وتعابيرهم عبارة عن نور إلهي .

أكرمنا الله وإياكم بما أكرم به عباده المقربين!..



أ . العبادات المستحبة

يأتي أداء العبادات المستحبة سياجا يحمي العبادات المفروضة ويقويها، ويجعل الشيطان أكثر يأسا من الوسوسة للمسلم بتركها أو إهمالها، فمن كان على المستحبات حريصا كان على الفرائض أحرص، وتكون كذلك وسيلة تقرِّب العبد من ربه ﷻ، وتجبر ما يقع في الفرائض من نقص أو سهو أو خطأ، يخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك فيقول:

«إنَّ أوَّلَ ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً، قال الرب تبارك وتعالى: انظروا، هل لعبدي من تطوُّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك».[١١٠]

إلا أنه ينبغي التنبه إلى عدم الاشتغال بالنوافل عن الفرائض والواجبات، فلا يصح الاشتغال بالنوافل فقط وإهمال الفرائض، كما لا يليق الاستغناء بالفرائض عن السنن والنوافل، ولكن الصواب بذلُ الجهد لأداء العبادات النافلة في طمأنينة إلى جانب إيفاء الفرائض حقها، ثم إن تطبيق النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في حياتهم فريد في هذا الشأن.

١١٠ الترمذي، الصلاة، ١٨٨/ ٤١٣.



ومن ناحية أخرى فمن غير اللائق بالمسلم ترك النوافل بحجة الاشتغال بقضاء الفرائض، إذ إن الفرائض يمكن قضاؤها على مدار اليوم عدا أوقات الكراهة[١١١]، في حين أن بعض الصلوات المستحبة كالتهجد والضحى والأوَّابين ينبغي أن يكون المرء على بصيرة في أدائها لتعلقها بأوقات معينة.[١١٢]

ولا يتقرب العبدُ إلى ربه بعملٍ كتقرُّبه إليه بالفرائض، لكنه لا ينال درجة المحبة بشيء كما يناله بمحافظته على النوافل، يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن اللّه قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».[١١٣]

فالعبادات المستحبة تحافظ على شعور العبودية حياً، وتهفو بالروح دوما في ملكوت بارئها، وتكسب الوجه نوراً وملاحة، ومن

---

١١١ انظر: الهداية للمرغيناني فصل في الأوقات التي تكره فيها الصلاة ص ٥٠.

١١٢ يؤكد مجتهدو مذهب الحنفية على عدم ترك السنن، لكن إن وصلت السن إلى حدٍ عجز معه عن أداء الفرائض والسنن، يمكن حينها أداء الفرائض بدل السنن.

١١٣ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨، أحمد، ٥، ٢٥٦، الهيثمي، ٢، ٢٤٨.



يواصل أداء النوافل بالخشوع والسكينة وتيقُّظ القلب يقوى إيمانه بربه ويشتد شوقه إليه، ومما لا شك فيه أن السعادة والسرور في الآخرة تتحقق على حسبه.

صور الفضائل

كانت أيام النبي عليه الصلاة والسلام ولياليه فياضة بأنواع العبادات المستحبة، كالسنن التي كان يصليها قبل وبعد الفرائض، وكصلاة التهجد التي يداوم عليها في الأسحار، وكالذكر والتفكر وقراءة القرآن الكريم كل يوم، وكصلوات الضحى والأوابين، وكصوم النافلة، وكالإنفاق في وجوه البر المتنوعة، فقد كانت كلها علامات على الحضور مع الله تعالى في كل آن، وكان عليه الصلاة والسلام إن فرح أو وصله ما يسره يخر ساجداً [١١٤] ويصلي شكراً منه على منَّة الله تعالى، [١١٥] وكان سرعان ما يقف للصلاة إن عرضت حوادث خارقة للعادة ككسوف الشمس وخسوف القمر أي أمام تجلي عظمة الله تعالى، [١١٦] وكذلك يلجأ إلى الصلاة إن كانت له حاجة، ثم إن شهر رمضان الكريم يكتسب روحانية مختلفة

---

١١٤ سجدة الشكر كسجدة التلاوة، فيشرع فيها بالنية متوضئاً، ويكبر بقول الله أكبر من غير رفع للأيدي، وينحني للسجود، وتكون السجدة طويلة قدر الإمكان، وبعدها يقوم.

١١٥ ابن ماجة، الصلاة، ١٩٢.

١١٦ البخاري، الكسوف، ٢ـ٤؛ ابن حبان، الصحيح، بيروت ١٩٩٣، ٧، ٦٨، ١٠٠.

بعبادات مخصوصة كصلاة التراويح والاعتكاف والإنفاق، إلى جانب حرصه على صيام النوافل بعد رمضان، وخاصة يومي الاثنين والخميس، وأما السبب فيوضحه في الحديث التالي:

«تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».[١١٧]

وقد اهتم بصيام الأيام البيض من كل شهر قمري وهي (١٣، ١٤، ١٥)، وأوصى أصحابه بصيامها، يذكر ابن عباس أن: «رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُ صومَ أيامِ البيض في سفرٍ ولا حَضَر».[١١٨]

وكان عليه الصلاة والسلام يصوم ستة أيام من شوال،[١١٩] ويصوم التاسع والعاشر من محرم أو العاشر والحادي عشرة وهو ما يسمى صيام عاشوراء.[١٢٠]

إلى جانب هذا كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام في حالة ذكر دائمة لله تعالى، لا يفتر لسانه عن الحمد والتسبيح والاستغفار، ويذبح الأضاحي عن نفسه وعمن لا يطيق من أمته.[١٢١]

١١٧ الترمذي، الصوم، ٤٤/ ٧٤٧.

١١٨ النسائي، الصوم، ٧٠

١١٩ مسلم، الصيام، ٢٠٤.

١٢٠ مسلم، الصيام، ١١٥.

١٢١ ـ أبو داوود، 3 ـ 4/ 2792، ابن سعد، 1، 249.



يقول ربيعة بن كعب ﵁: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: "سَلْ". فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: "**أو غير ذلك؟**" قلت: هو ذاك، قال: "**فأعني على نفسك بكثرة السجود**"».[١٢٢]

والمقصود من السجود الصلاة عامة، وبناء عليه يلزم من يريد مجاورة حبيب الله تعالى عليه الصلاة والسلام في الجنة أن يكثر من الصلاة، وزيادة السجود الذي يعتبر أوقات يتقرب العبد فيها من الله تعالى، ثم إن مكانة النبي عليه الصلاة والسلام في الجنة مقامٌ عال يفوق مكانة الأنبياء عليهم السلام، وحسبما فُهم من الحديث يجب تأدية الوظائف التي ألزمتها السنة الشريفة وخاصة الإكثار من أداء الصلاة في خشوع للفوز بقرب الرسول ﷺ في الجنة.



قالت أم حبيبة ﵅: قال ﷺ:

«**من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة بُني له بيت في الجنة** ».[١٢٣]

بعد أن سمعتها من رسول الله ﷺ ما تركتها.



١٢٢ مسلم، الصلاة، ٢٢٦.

١٢٣ مسلم، المسافرين، ١٠٣.



روي أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لما فتحنا خيبر أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبي، فجعل الناس يتبايعون غنائمهم، فجاء رجل حين صلى رسول الله، فقال: يا رسول الله لقد ربحت ربحا ما ربح اليوم مثله أحد من أهل هذا الوادي.

قال: "**ويحك، وما ربحت؟**"

قال: ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاث مائة أوقية [١٢٤]،

فقال رسول اللَّهِ ﷺ:

"**أنا أُنبئك بخير رجل ربح**"

قال: ما هو يا رسول الله؟

قال: "ركعتين بعد الصلاة"». [١٢٥]



وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أرسل سرية فرجعوا بغنائم وفيرة في فترة قصير، فقال أحدهم إثر ذلك:

«بعث رسول اللَّهِ ﷺ بعثا فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرة، فقال رجل: يا رسول اللّه، ما رأينا بعث قوم أسرع كرة، ولا أعظم غنيمة،

١٢٤ أوقية: مقياس قديم للوزن والقيمة يقابل ١٢٨٣غراماً.

١٢٥ أبي داود، كِتَابُ سُجُودِ الْقُرْآنِ، بَاب تَفْرِيعِ أَبْوَابُ السُجُودِ وَكَمْ سَجْدَةَ رقم الحديث: ٢٤٠٧.



من هذا البعث، ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«ألا أخبركم بأسرع كرة وأعظم غنيمة من هذا البعث؟ رجل توضأ في بيته فأحسن وضوءه، ثم تحمل إلى المسجد، فصلى فيه الغداة، ثم عقب بصلاة الضحى، فقد أسرع الكرة، وأعظم الغنيمة».[١٢٦]



يقول ابن عمر رضي الله عنه:

«قُلْتُ لأبي ذر: يا عمَّاه، أوْصِني. قالَ: سألْتني عمّا سألتُ عنْهُ رسُولَ الله ﷺ، فقالَ:

"إن صليتَ الضُّحَى لَم تُكتَبْ مَن الغافِلينَ، وإنْ صليتَ أرْبعًا كُتبْتَ منَ العابِدينَ، وإِن صليت سِتًا لَم يلْحقكَ ذَنب، وإِنّ صلَّيت ثمانيًا كُتبتَ مِنَ القانِتين، وإنْ صلَّيتَ اثِنتي عَشرة ركعة بنُي لكَ بيت في الجنة، وما من يومِ ولا ليلةٍ ولا سَاعةٍ إلا وللهِ فيه صدقةٌ يمنُّ بها على مَنْ يشاءُ من عبادِه، وما مَنَّ على عبدٍ بِمثْلِ أنْ يُلهِمَهُ ذكِرهْ".[١٢٧]



---

١٢٦ ابن حبان، ٦، ٢٧٦/ ٢٥٣٥.

١٢٧ المالكي، جمع الفوائد، ٢٢١١؛ الهيثمي، ٢، ٢٣٦؛ علي المتقي، ٧، ٨٠٩/ ٢١٥١١.



يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إنَّ في الجنة باباً يقال له: الضحى، فإذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أين الذين كانوا يديمون على صلاة الضحى؟ هذا بابكم، فادخلوه برحمة الله ﷻ».[128] .[129]



إنَّ صلاة ركعتين بعد كل وضوء أو غسل -شكرا للّه تعالى على نعمة الإسلام ومِنَّة الطهارة- فعلٌ حميد وحسن يثاب عليه المسلم ويؤجر. لقد قال سيدنا عثمان ﷺ بعدما توضأ -وهو يعلم الناس-:

«رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: من توضأ نحو وضوئي هذا ثم ركع ركعتين لم يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه».[130]



عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر:

"يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة".

---

١٢٨ السيوطي، ١، ٣٥٥/ ٢٣٢٣.

١٢٩ يمكن تأدية صلاة الضحى من وقت إضاءة الشمس النهار بعد مرور ربع اليوم من أرباعه الأولى إلى أن تكون في وسط السماء وقت الزوال.

١٣٠ البخاري، الوضوء، ٢٤.



قال: ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا، في ساعة من ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي».[١٣١]

فقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام أن بلالا يمشي أمامه في الجنة، [١٣٢]وقد أرى الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام هذه الرؤية تعليما لنا فضيلة صلاة النافلة.



قال أبو قتادة ﵁: «دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس بين ظهراني الناس، قال: فجلست، فقال رسول الله ﷺ: **"ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس؟"**، قال: فقلت: يا رسول الله رأيتك جالسا والناس جلوس؟ قال:**"فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين"**».[١٣٣]



وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يسارعون إلى صلاة النافلة إن عرضت حاجة أو أمر يهمُّهم، فعن ثابت، قال: كنت مع أنس ﵁ فجاء قهرمانه، فقال: عطشت أرضنا، قال: فقام أنس

١٣١ البخاري، التهجد، ١٧، التوحيد، ٤٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٠٨.

١٣٢ انظر: البخاري، أصحاب النبي، ٦.

١٣٣ مسلم، المسافرين، ٧٠.



فتوضأ، وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا، فرأيت السحاب تكتام، قال: ثم مطرت حتى ملأت كل شيء، فلما سكن المطر، بعث أنس بعض أهله فقال: انظروا أين بلغت الماء، فنظروا فلم تَعُدِّ أرضه إلا يسيرا..[١٣٤]



وقد انعكس اهتمام الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- بالنوافل على أولادهم، تقول ربيعة بنت معوذ رضي الله عنها عن صوم عاشوراء:

«فكنا نصومه بعد، ونصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار».[١٣٥]



وختاما فإن الفرائض عبادات يلزم العباد تأديتها كحد أدنى، إلا أنه ينبغي عليهم مواصلة المستحب من العبادات وزيادتها حسب إمكانياتهم سواء في اليسر أو العسر بقصد التقرب من ربهم تعالى وشكره على النعم التي مَنَّ بها عليهم، لأن العبادة في أصلها هي المثول بين يدي الله، وهذه العبادات تحلق بالمؤمن في العوالم الروحية وتملأ القلوب المؤمنة بالتجليات الربانية والمنح الإلهية.

---

١٣٤ ابن سعد، ٥، ٢١ـ ٢٢.

١٣٥ البخاري، الصوم، ٤٧؛ مسلم، الصيام، ١٣٦.



فما يبذله العبد من جهد في أداء المستحب من العبادات يرتقي به إلى درجة الإحسان التي تجعل العبد يعيش مع ربه في كل آن.

إن أداء النوافل تعبير حقيقي عن حكمة خلق الإنسان والغاية من إيجاده ألا وهي العبادة، ولذلك كانت أهم زاد للآخرة.

ب . المداومة على الجماعة

إن التربية الاجتماعية من أهم أسس الإسلام، وتبدأ أول بذور التربية الاجتماعية للمسلم بصلاته مع الجماعة، فهي من أهمّ ما يثبت شعور الوحدة والتجمع في المجتمع الإسلامي المبني على أساس التوحيد، فأي مكان تؤدى فيه الصلاة جماعة تكون بنية الإسلام الروحية والاجتماعية قد بدأت تزدهر حقا.

الإسلام يأمر المؤمنين أن يحيوا بروح الجماعة، فيمدوا يد العون والمساعدة لبعضهم في كل أمر، ويبذلون الجهود في سبيل الله تعالى ضمن إطار من الوحدة والتوحد وكأنهم صف واحد، يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف، ٤)

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:



«...عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة...».[١٣٦]

ثم إننا عندما نقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة من صلاتنا فإننا نعترف بين يدي ربنا في اليوم الواحد أربعين مرة على الأقل أننا أمة واحدة ومجتمع واحد، بقولنا: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

كان أول ما يقوم به النبي عليه الصلاة والسلام عند حضوره قباء أو المدينة المنورة، هو بناء مسجد فيها ليجتمع المسلمون فيه على طاعة الله تعالى، فوضع بذلك أول أسس الجماعة الإسلامية.

وقد احتذى أجدادنا حذو النبي عليه الصلاة والسلام في سنته هذه حيث قاموا بتشييد المساجد العظيمة في مركز كل مدينة يعمروها، ثم يكملون بناء المدن حول المساجد وكأنها هالات نور تبعث الهداية فيما حولها.

وبالتالي فإن تأدية الصلوات بالجماعة أنسب عمل يوافق غرض الإسلام، وأمر الله تعالى.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم».[١٣٧]

---

١٣٦ الترمذي، الفتن، ٧/ ٢١٦٥.

١٣٧ ابن ماجة، المساجد، ١٩/ ٨٠٠؛ ابن خزيمة، الصحيح، ٢/ ٣٧٤.



وفي حديث آخر:

«"لا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟" قالوا: بلى يا رسول الله، **قال: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط"»**.(١٣٨)

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«من سمع النداء فلم يجب فلم يرد خيرا أو لم يُرَد به».(١٣٩)

ولذلك فقد تعامل النبي عليه الصلاة والسلام مع من يهمل صلاة الجماعة بلا هوادة، حتى أنه قال يوماً:

"من سمع المنادي فلم يمنعه من اتباعه عذر لم تقبل منه الصلاة التي صلى "، قالوا: وما العذر؟ قال: " خوف أو مرض ".(١٤٠)

فترك الجماعة وإهمالها يتسبب بتفرق جماعة المسلمين، يتحدث الله تعالى عن الذين يشتتون الجماعة ذامّاً إياهم فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام، ١٥٩)

١٣٨ الترمذي، إسباغ الوضوء، ٥١.

١٣٩ البيهقي، السنن الكبرى، ٣، ٥٧.

١٤٠ أبو داوود، الصلاة، ٤٦/ ٥٥١.



صور الفضائل

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «نزل رسول الله ﷺ بين ضجنان وعسفان فقال المشركون إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم هي العصر، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم وتقوم طائفة أخرى وراءهم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم فتكون لهم ركعة ركعة، ولرسول الله ﷺ ركعتان».[١٤١]

أي إن أمر تأخير المسلمين الصلاة وتركهم الجماعة ليس موضوعاً قابلاً للبحث مهما كان السبب حتى ولو كان الوقت حرباً.



يروي جعفر بن عمرو عن أبيه قوله:

«رأيت رسول الله ﷺ يأكل ذراعا يحتز منها، فدعي إلى الصلاة، فقام فطرح السكين فصلى ولم يتوضأ».[١٤٢]

وقد كان عليه الصلاة والسلام يترك طعامه ويقوم لأداء الصلاة في أول وقتها مع وجود وقت كاف لأدائها بعد فراغه من طعامه، وذلك لاهتمامه البالغ بالمداومة على صلاة الجماعة.



---

١٤١ الترمذي، التفسير، ٤/ ٢١.

١٤٢ البخاري، الأذان، ٤٣.



يقول يزيد بن عامر ﵁:

«جئت والنبي ﷺ في الصلاة فجلست ولم أدخل معهم في الصلاة، قال: فانصرف علينا رسول الله ﷺ فرأى يزيد جالسا، فقال: **"ألم تسلم يا يزيد"**، قال: بلى يا رسول الله قد أسلمت، قال: **"فما منعك أن تدخل مع الناس في صلاتهم؟"**، قال: إني كنت قد صليت في منزلي وأنا أحسب أن قد صليتم، فقال: **"إذا جئت إلى الصلاة فوجدت الناس فصل معهم وإن كنت قد صليت تكن لك نافلة وهذه مكتوبة"**». (١٤٣)



وقد كانت الصلاة مع الجماعة من أهم الأمور التي اعتنى النبي عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته، ووفق ما يرويه لنا سيدنا أنس ﵁ فإن رسول الله ﷺ لم يتخلف عن صلاة الجماعة إلا في الأيام الثلاث الأخيرة من مرضه قبل وفاته. (١٤٤)

قَالَ أحد الصحابة:

«دخلت على عائشة ﵂ فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «**أصلى**

---

١٤٣ أبو داوود، الصلاة، ٥٦/ ٥٧٧.

١٤٤ البخاري، الأذان، ٤٦.



الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**». قالت: ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال ﷺ: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**» قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**»، فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «**أصلى الناس؟**» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد، ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلا رقيقا -: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قال: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر، والنبي ﷺ قاعد»[١٤٥].



١٤٥ البخاري، الأذان، ٥١.



يروي سيدنا أنس رضي الله عنه:

أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة «فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه».[١٤٦]

لقد فرح النبي عليه الصلاة والسلام لتركه خلفه مجتمعاً كالبنيان المرصوص صفوفه متحدة وأفراده يواصلون أداء صلواتهم مع الجماعة حتى بدا وجهه الكريم كروقة مصحف حين كان يشاهدهم، وأما تبسم سيد المخلوقات المضيء بنوره جميع الكائنات فقد بعث في الصحابة الكرام الأمل. إلا أنه كان متوجهاً إلى الرفيق الأعلى راضية نفسه منتظراً لحظة اللقاء.

وأما كلماته الأخيرة في أنفاسه الأخيرة فكانت:

«الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».[١٤٧] .



---

١٤٦ البخاري، الأذان، ٤٦/ ٦٨٠.

١٤٧ أبو داوود، الأدب، ١٢٣ ـ ١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجة، الوصايا، ١.



يقول جابر بن عبد الله ﵁: «خَلَتِ البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال لهم: "**إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد**"، قالوا: نعم، يا رسول الله! قد أردنا ذلك، فقال: "**يا بني سلمة! ديارَكم تكتبْ آثارُكم، ديارَكم تكتبْ آثارُكم**"».[١٤٨]



يقول عبد الله بن أم مكتوم ﵁:

«يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوامِّ والسباع، فقال النبي ﷺ: "**أتسمع حي على الصلاة حي على الفلاح، فحي هلاً**"».[١٤٩]

وكما يبدو فإن النبي ﷺ يسلط الضوء على أهمية الصلاة مع الجماعة، على الرغم من كل صعوبة الظروف المحيطة أحيانا.



ولذلك فقد أنذر النبي عليه الصلاة والسلام المتخلفين عن الجماعة بتحذيرات مختلفة، يقول أبي بن كعب ﵁:

«صلى بنا رسولُ الله ﷺ يوما الصبحَ، فقال:"**أشاهد فلان؟**" قالوا: لا، قال: "**أشاهد فلان؟**" قالوا: لا، قال:

---

١٤٨ مسلم، المساجد، ٢٨٠، ٢٨١؛ الترمذي، تفسير القرآن، ٣٦/ ١.

١٤٩ أبو داوود، الصلاة، ٤٦/ ٥٥٣.



"إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبْوا على الركب، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله ﷻ"».[١٥٠]



قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد عُلم نفاقه أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة، وقال: إن رسول الله ﷺ علَّمنا سُنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه».[١٥١]



كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور، ٣٧).[١٥٢]



---

١٥٠ أبو داوود، الصلاة، ٤٧/ ٥٥٤؛ النسائي، الإمامة، ٤٥.

١٥١ مسلم، المساجد، ٢٥٦ - ٢٥٧.

١٥٢ ابن كثير، التفسير، ٣، ٣٠٦؛ الهيثمي، ٧، ٨٣.



يروى عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت:

«دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَوَجَدَ عِنْدِي رَجُلَيْنِ نَائِمَيْنِ، فَقَالَ: «وَمَا شَأْنُ هَذَيْنِ مَا شَهِدَا مَعِي الصَّلَاةَ؟» قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّيَا مَعَ النَّاسِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَلَمْ يَزَالَا يُصَلِّيَانِ حَتَّى أَصْبَحَا، وَصَلَّيَا الصُّبْحَ، وَنَامَا، فَقَالَ عُمَرُ: «لَأَنْ أُصَلِّيَ الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ لَيْلَةً حَتَّى أُصْبِحَ» .(١٥٣)



عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري أنه قال:

«جاء عثمان بن عفان إلى صلاة العشاء فرأى أهل المسجد قليلا، فاضطجع في مؤخر المسجد ينتظر الناس أن يكثروا، فأتاه ابن أبي عمرة فجلس إليه فسأله: من هو؟ فأخبره، فقال: ما معك من القرآن؟ فأخبره، فقال له عثمان: من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة».(١٥٤)



وينقل لنا ثابت بن حجاج هذه الحادثة من الصحابة وهو ينظر إلى المتخلفين عن الجماعة:

١٥٣ عبد الرزاق، المصنف، بيروت ١٩٧٠، ١، ٥٢٦؛ الموطأ، صلاة الجماعة، ٧.

١٥٤ انظر: الموطأ، صلاة الجماعة، ٧؛ مسلم، المساجد، ٢٦٠.



«خرج عمر ﷺ إلى الصلاة فاستقبل الناس، فأمر المؤذن فأقام، وقال: لا ننتظر لصلاتنا أحدا، فلما قضى صلاته أقبل على الناس، ثم قال: ما بال أقوام يتخلف بتخلفهم آخرون، والله لقد هممت أن أرسل إليهم، فيجاء في أعناقهم ثم يقال: اشهدوا الصلاة».[١٥٥]



تقول أم الدرداء رضي الله عنها:

«دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: ما أغضبك، فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئا إلا إنهم يصلون جميعا».[١٥٦] فتعجب رضي الله عنه كيف يهمل هؤلاء الناس أمر صلاة الجماعة.



كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إن فاتته الصلاة مع الجماعة يشتغل بالعبادة حتى وقت الصلاة التالية، وهذا جارٍ على صلاة العشاء أيضاً، أي إنه يتعبد ربه حتى الصباح في هذه الحالة.[١٥٧]



تزوج الحارث بن حسان وكانت له صحبة، وكان الرجل إذ ذاك إذا تزوج تخدر أياما، فلا يخرج لصلاة الغداة، فقيل له: أتخرج وإنما

١٥٥ عبد الرزاق، ١، ٥١٩.

١٥٦ البخاري، الأذان، ٣١.

١٥٧ ابن حجر، الإصابة، ٢، ٣٤٩.



بنيت بأهلك في هذه الليلة؟ قال: «والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جماعة لامرأة سوء».(١٥٨)



سأل ابن جريج أحدَ المشهورين من التابعين وهو عطاء رحمه الله:

«إن سمع الإقامة أو الأذان وهو يصلي المكتوبة أيقطع صلاته ويأتي الجماعة؟ قال: إن ظن أنه يدرك من المكتوبة شيئا فنعم، وقد روي أن ابن عمر صلى ركعتين من المكتوبة في بيته فسمع الإقامة فخرج إليها».(١٥٩)



لقد كان عامر بن عبد الله على فراش الموت يَعُدُ أنفاسَ الحياة، وأهله حوله يبكون، فبينما هو يصارع الموت سمع المؤذن ينادي لصلاة المغرب ونفسُهُ تُحشْرجُ في حلقه، وقد أشتدّ نزعُه وعظُـم كربه، فلما سمع النداء قال لمن حوله:خذوا بيدي... قالوا: إلى أين!؟ ..قال: إلى المسجد.. قالوا: وأنت على هذه الحال !!قال: سبحان الله .!! أسمع منادي الصلاة ولا أجيبه!! خذوا بيدي.. فحملوه بين رجلين فصلى ركعة مع الإمام ثمّ مات في سجوده.

---

١٥٨ الهيثمي، ٢، ٤١.

١٥٩ عبد الرزاق، ١، ٥١٤ـ ٥١٥.



أن يفارق عبدٌ -واظب عمره كله على صلاة الجامعة- ويلفظ أنفاسه الأخيرة في السجود لتجلٍّ رائع لحديث النبي ﷺ «**يموت العبد على ما عاش عليه**».



يقول عطاء بن ثابت رحمه الله تعالى:

«عن عطاء بن السائب قال: دخلنا على أبي عبد الرحمن السلمي وهو يقضي -أي ينزع- في المسجد، فقلنا له: لو تحولت إلى الفراش، فإنه أوثر، قال: حدثني فلان أن النبي ﷺ قال: "**لايزال أحدكم في صلاةٍ مادام في مصلّاه ينتظر الصلاة**"، وفي رواية ابن سعد: "**والملائكة تقول اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**"، قال أبو عبدالرحمن السلمي: فأريد أن أموت وأنا في مسجدي».



وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«**إذا قال القارئ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال من خلفه آمين فوافق قولُه قولَ أهل السماء غُفر له ما تقدم من ذنبه**».[١٦٠]



وحسب إحدى الروايات:

---

١٦٠ البخاري، الأذان، ١١٣؛ مسلم، الصلاة، ٧٦.



«إن الله تعالى ينادي يوم القيامة: أين جيراني؟ فتقول الملائكة: ربنا ومن ينبغي أن يجاورك!؟ فيقول: أين عمَّار المساجد».[١٦١]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«المسجد بيتُ كلِّ تقي، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم الروحَ والرحمةَ والجَوَازَ على الصراط إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ».[١٦٢]

يقول عاشق باشازاده من الأوائل المؤرخين العثمانيين:

«نسب آل عثمان هذا نسب صادق، فهم لم يصدر عنهم أيُّ فعل غير مشروع، بل كانوا يجتنبون ما يكرهه العلماء من التصرفات والأعمال، حتى تجرأ شيخ الإسلام ملا فناري على رفض شهادة يلدرم بيازيد بسبب تركه للجماعة، وقال بشكل واضح للسلطان الذي سأله عن السبب في ذلك:

« يا مولاي، إني لا أراكم في الجماعة، في حين أنه عليكم أن تكونوا في الصف الأول، فأنتم قدوة هذه الأمة، فإذا لم تشاركوا في الجماعة غدوتم أمثلة لا يحتذى بها للأمة، وهذا يمنع قبول شهادتكم...».

---

١٦١ علي المتقي، ٤، ٥٧٨/ ٢٠٣٣٩.

١٦٢ الطبراني، المجمع الكبير، تحقيق. حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٦، ٢٥٤/ ٦١٤٣؛ علي المتقي، ٧، ٥٨٠/ ٢٠٣٤٩.

وبعد هذا وحسب رواية أخرى بنى يلدرم بيازيد المسجد المشهور في بورصة المسمى ب«أولو جامع» شكرا لله على نصر نيغبولو، وداوم على صلاة الجماعة فيه.



والحاصل، إن الاستمرار في صلاة الجماعة صورةٌ لصدق الإيمان وإخلاصه، يقول عليه الصلاة والسلام:

«إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾». [١٦٣]

وقد رتب أولياء الله تعالى فوائد معينة رئيسية لتأدية الصلوات الخمس جماعة في المساجد منها:

ـ تأصل شعور الانتماء إلى الجماعة في قلب المؤمن بالاستفادة من الفيض والبركة التي يمن الله بها على المساجد.

ـ أداء الصلوات في أكثر أوقاتها قبولاً، أي أولها.

ـ التعرض لدعاء الملائكة واستغفارها وشهادتها.

ـ الابتعاد عن الشيطان.

ـ نيل ثواب عظيم بإدراك تكبيرة الافتتاح.

١٦٣ الترمذي، الإيمان، ٨/ ٢٦١٧.



ـ التخلص من صفة النفاق في الأعمال.

ـ الاستفادة من فيض الأدعية والأذكار المؤداة جماعياً.

ـ المساهمة في ترسيخ الألفة بين المسلمين.

ـ التعاون في أمور الطاعة والعبادة.

ـ التعود على أحكام التلاوة وتعلمها في الصلوات الجهرية.

ـ التمكن من أداء الصلاة كاملة مع الخشوع.

وكما تبين ثمة الكثير من فوائد الصلاة مع الجماعة، ولذا فقد أمر الله تعالى وحبيبه الأكرم المؤمنين بالاستمرار في اعتياد المساجد والجماعة على نحو مؤكد.

ج . عبادة الليل

إن الخلوة مع الحق تعالى في أعماق الليل منبع سعادة لا يوصف للعبد، ووسيلة لرحمة ومغفرة ولطف ورضا إلهي لا حدود له، تقول الآية الكريمة:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة، ١٦)

إن الأسرار والحكم والفيوض التي أودعها الله تعالى في اللَّيل يعاينها المرء على حسب استعداد قلبه وروحه، ومن أظهر الدلائل



على أهمية هذا الوقت المبارك ما تحقق فيه من اللطائف الإلهية كالمعراج ونزول الوحي.

ولذا تعد الليالي وأوقات الأسحار فرصا استثنائية للمؤمنين العازمين على التقرب من الله، لسكون أعماقها وامتلائها بالفيوضات الإلهية.

وفي الحديث الشريف:

«إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة».[١٦٤]

يقول الحاج علي الراميتاني قدس سره:

«حين تجتمع ثلاثة قلوب تتحقق أمنية العبد المؤمن، قلب المؤمن المخلص وقلب القرآن وهي سورة يس وقلب الليل وهو وقت السحر، [١٦٥]ومن يعرف لهذه الغنيمة قدرها يدرك أكثر الأجواء الممتلئة بالفيوض للدعاء والعبادة والتوجه إلى الله تعالى في وقت يلف العالم أجمع سكونٌ عميق، حيث تخلد فيه كل المخلوقات إلى الراحة، يقول الله تعالى مثنياً على عباده السعداء:

---

١٦٤ مسلم، المسافرين، ١٦٦.

١٦٥ محمد برصة، مجالس حضرة محمد بهاء الدين، ترجمة. نجدت طوسون، اسطنبول ١٩٩٨، ص: ٦٠.



﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(الذاريات، ١٧ ـ ١٨).

إن الليالي الساكنة أنسب الأوقات لهيام الأرواح المؤمنة العاشقة للذات الإلهية في حضرة الحق تبارك وتعالى، فيترك العاشقون –في سبيل رضا الله تعالى– كل متع الدنيا من الأسرة الناعمة والنوم الهانئ وغيرها، ولذلك يكون للقرآن والذكر والصلوات في جوف الليل الساكن أهمية عظيمة في تقرب المؤمن من الله تعالى، فالعبادات المؤدَّاة ليلاً تبدو وكأنها خلوة مع الحبيب الأسمى، فالاستيقاظ –الجميع نيام– للدخول في مظلة رحمة المولى المتعالي يعني الانضمام إلى العباد الاستثنائيين الذين يشملهم مجلس الحب والرحمة.

إن الرغبة في عبادة الليل تكون على حسب شدة العشق والحب الإلهي في النفوس، وقد قال أحد العابدين الذين وجدوا حلاوة عبادة الليل المعنوية وفيضه:

«كنت لا أخاف الموت، إلا لأنه يحول بيني وبين قيام الليل».

وفي الحقيقة كيف يتصور ممن يدَّعي حبَّ ربه أن ينام –في غفلة عميقة– حتى الصباح، ولذا فإن إحياء الأسحار ليس إلا تعبيرا عن الحب والتعظيم الصادق الذي يكنه العبد لربه تعالى، فليلة يقضيها صاحبها غافلا في النوم هي أشبه بمطر هاطل على الحجر والبحر والصحراء لا فائدة له، وخسارة يتعذر تعويضها.



وقد كان النبي ﷺ أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص بقوله:

«يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل».[١٦٦]

ما يعني أن التساهل في التهجد سبب لمضيعة هامة وخسران كبير.

فالقدرة على أخذ نصيب من الليل يبدأ بالاستغفار ويستمر بالتوحيد والصلوات الشريفة والتعرض لروحانية الذكر، فالذكر في الأسحار -أي لقاء العبد مولاه- حاجة لا يُغَض الطرف عنها، وفرصة لا تُعوض لإحياء القلب، ثم إن أروحنا تحتاج إلى الغذاء المعنوي كحاجة أجسادنا إلى الغذاء المادي، وقد أولى الحق تعالى اهتماماً أكثر بالذكر في الأسحار مقارنة مع سائر الأوقات، تقول الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان، ٢٦ - ٢٧)

يقول عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

«قلت: يا رسول الله هل من ساعة أقرب من الأخرى؟ أو هل من ساعة يبتغى ذكرها؟

---

١٦٦ البخاري، التهجد، ١٩.

قال: **"نعم، إن أقرب ما يكون الرب ﷻ من العبد جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله ﷻ في تلك الساعة فكن، فإن الصلاة محضورة مشهودة إلى طلوع الشمس"**».[١٦٧]

والحاصل فالمؤمن إن قضى ليلته في ظلال هدي الله تعالى وهدي نبيه عليه الصلاة والسلام، وأخذ بحظ وافر من الذكر والصلوات والطاعات تغدو ليلته مشرقة أكثر من نهاره، وقد قال أبو يزيد البسطامي:

«لم ينكشف لي أيُّ سرٍ قبل أن تتحول الليالي إلى نهار».

وهكذا تنعكس روحانية الأسحار على حياة الذين تمكنوا بحق من إحياء تلك الأوقات المفعمة باللطائف العظيمة من خلال إدراكهم لقيمة الليالي، ولكن لابد لنا للاستفادة بحق من أجواء الليل المغمورة بالفيوض والروحانية أن نجتنب المعاصي في النهار، حتى يصبح حالنا في السحر هو حالنا في كل وقت من ليل أو نهار.

صور الفضائل

كان الحق ﷻ يأمر الحبيب ﷺ كي يغتنم فيوضات الليل بما يلي:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء، ٧٩)

---

١٦٧ النسائي، مواقيت الصلاة، ٣٥.



فلم يدع عليه الصلاة والسلام الصلاة والاستغفار وقراءة القرآن والدعاء في أوقات الليل المغمورة بالبركة والفيض بعد هذا الأمر الإلهي، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.(١٦٨)

إلى جانب أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي ثلاث عشرة ركعة من الليل، ثم إنه صلى إحدى عشرة ركعة وترك ركعتين، ثم قبض حين قبض وهو يصلي من الليل تسع ركعات، وكان آخر صلاته من الليل الوتر.(١٦٩)



وتحكي لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول:

«ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟

قال: **"تنام عيني ولا ينام قلبي"**».(١٧٠)

يفيد هذا الحديث الشريف أن قلب النبي ﷺ في تواصل دائم مع الله تعالى في كل الأحيان، وليس أثناء العبادة فحسب.



---

١٦٨ أبو داوود، التطوع، ١٨/ ١٣٠٧.

١٦٩ أبو داوود، التطوع، ٢٦/ ١٣٦٣.

١٧٠ البخاري، التهجد، ١٦، التراويح ١؛ مسلم، المسافرين ١٢٥.



يخبرنا حذيفة ﵁ -وقد ائتم ذات مرة برسول الله في صلاة النافلة- بحال النبي ﷺ أثناء العبادة فيقول: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء: فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، [١٧١] إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: (سبحان ربي العظيم)، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: (سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)، ثم قام قياماً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: (سبحان ربي الأعلى) فكان سجوده قريباً من قيامه». [١٧٢]



تقول أمنا السيدة عَائِشَةَ ﵂:

«افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: "**سُبْحَانَكَ**

١٧١ وفق ما بينه هذا الحديث الشريف فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد قرأ سورة النساء بعدما قرأ سورة البقرة وأعقبها بآل عمران، وهذا الترتيب مخالف لترتيب هذه السور الموجودة في القرآن والتي تبدأ بالبقرة وتنتهي بالنساء، وبين شراح الحديث الحكمة في هذا على هذين النحوين: أحدهما: لم تكن السور آنذاك مرتبة كما هي الآن، والثاني: تعليمنا جواز قراءتها على هذا الترتيب.

١٧٢ مسلم، المسافرين، ٢٠٣.



وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ"، فَقُلْتُ: فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر».[١٧٣]



لقد أراد النبي ﷺ من أمته تأدية صلاة التهجد والتي تعد أحد أهم وسائط التقدم المرحلي المعنوية، باعتناء واهتمام، وبدأ أولاً بأقربائه في التنبيه في هذا الأمر، وروي أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما: «**ألا تقومان فتصليان**» [١٧٤]. ويوصيهم بالاستفادة من فيوضات الليل المعنوية، ويقول لسائر أصحابه:

«**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم...**».[١٧٥]



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**قالت أم سليمان بن داود: يا بُني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة**».[١٧٦]



١٧٣ مسلم، الصلاة، ٢٢١.

١٧٤ البخاري، التهجد، ٥.

١٧٥ الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٩.

١٧٦ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٧٤.



وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ:

«كان الرجل في حياة النبي ﷺ، إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤيا، فأقصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلاما شابا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملك آخر فقال لي: لم ترع،، قَالَ: فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول اللَّهِ ﷺ،فقال: "**نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل**" فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا».[177]



يقول عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي عن ربه عز وجل مثنياً على المؤمنين الذين ينفقون في السر، ويقومون من الليل، ويجاهدون في سيل الله مخلصين له:

«ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، أما الثلاثة الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه، فتخلف رجل من أعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل

177 البخاري، أصحاب النبي، ١٩/ ١١٢١/ ١١٢٢.



به فنزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام رجل يتملقني، ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل، أو يفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم».[١٧٨]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام وفق ما رواه علي رضي الله عنه:

«إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن طيّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».[١٧٩]



يذكر أستاذنا موسى أفندي لحظة من حال إحياء مرشده الفاضل سيدنا سلطان العارفين محمود سامي رمضان أوغلو الليالي في طريق معرفة الله والعبودية مع أخلاقه السامية على النّحو التّالي:

كان قلب سيدنا محمود سامي رمضان أوغلو على الرغم من بشاشة وجهه المبارك يبكي بشدة، وكانت عيونه تبكي لخلاص الأمة الإسلامية من يد الظالمين، وإنقاذ العصاة والصفح عنهم، فتنهمر دموعهم في فؤادهم، ويستمعون بخشوع أثناء تلاوة القرآن الكريم، فتسيل دموعه في بعض الأحيان على خديه، وبالأخص

١٧٨ الترمذي، الجنة، ٢٥/ ٢٥٦٨؛ النسائي، الزكاة، ٧٥.

١٧٩ الترمذي، البر، ٥٣/ ١٩٨٤.



في الحج ورفاق السفر نيام في السيارة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ ترى دموعه تبدو كحبات اللؤلؤ تحت ضوء القمر وهي تنهمر على وجهه، وهذه الصورة الإلهية التي لا يسعنا تصويرها، كانت من الروعة بحيث يصعب وصفها على الشعراء والأدباء.



لقد كان شوق جدِّنا المرحوم موسى أفندي إلى عبادة الليل واهتمامه بها كتوق العاشق للحظة اللقاء بمعشوقه، وقد كان يحافظ على حاله هذه حتى في أيامه التي يكون فيها مريضاً وتعباً جسدياً، فلذا كان يحلق في أفق الحب الإلهي على الدوام، وقد كان أول ما سأل عنه مَن حوله -بعد أن زال أثر المخدر عقب عملية في العين خضع لها-: كم الساعة الآن؟ فأجابوا: سيدي، الساعة قاربت الثالثة، فتيمم بمساعدةٍ ممن حوله قائلاً: ليس كمثل صلاة الليل شيء من الصلوات في أهميتها، فينبغي ألا تهمل، وصلّى ركعتين تهجداً بالإيماء -وقد حلق بفؤاده في فضاءات الحب لله تلفه لذة معنوية وشوق مقيم- غائبا عن معاناته وأوجاعه، ثم قرأ ورده المعتاد، وكأنه يعلمنا تطبيق قوله تعالى بحاله:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة، ١٦)





قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟!! فقال: لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف.



ثم إن عبادة الليل من أهم المؤثرات التي توفر الصحة الروحية والبدنية، [١٨٠] وتدفع الأمراض، وتهب الإنسانَ قوة مادية ومعنوية، ودراية وهيبة، وإليك بعض الحوادث الدالة على هذه الحقيقة:

دعا أحد قادة الروم رجلاً من نصارى العرب، فقال له: ادخل في معسكر هذا القوم، فانظر ما هديهم، وما حالهم، وما أعمالهم، وما يصنعون، ثم ائتني فأخبرني بما رأيت، وخرج الرجل من معسكر الروم حتى دخل معسكر المسلمين فلم يستنكروه؛ لأنه كان رجلا من العرب، لسانه عربي ووجهه عربي، فمكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح فأقام عامة يومه، ثم رجع إلى قائده الرومي، وقال له: جئتك من عند قوم يقومون الليل، ويصومون النهار، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو يسرق مَلِكُهم لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه؛ لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى، ولما انتهى الرجل العربي من كلامه قال

١٨٠ انظر: الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٩.



القائد الرومي: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، فوالله لبطنُ الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم.[١٨١]



وحادثة أخرى تشبه سابقتها:

«عندما سأل هرقل ملك الروم جنوده عن سرِّ هزمتهم من المسلمين مع أن عددهم يفوق بكثير عدد المسلمين، ومعهم من العُدة والعتاد ما ليس للمسلمين، فأجابه أحدُهم: لأنهم يصومون النهار ويقيمون الليل، ويحبون الموت كما نحب نحن الحياة» [١٨٢]



وختاما فإن الليالي أوقات استثنائية لصفاء الذهن والقلب، وحِدَّةِ الإدراك، وقوة الحافظة، وسرعة الترقي في المعارج المادية والمعنوية، وهي فرص لا تُفَوَّتُ لمن تنتظره وظائف عظيمة، والليل هبة سنية لمن يُعِدُّ نفسَه لإصلاح المجتمع ويحمل رؤية لنهضة المسلمين بما تربيه عليه هذه اللحظات من تقوى ووصلة بالله والتلقي من فيوضاته سبحانه، ولكن لا ينال بركة أسرار الليل هذه إلا المؤمن الصالح الذي يحيي هذه الأوقات بالعبادة والتعمق في التفكر، وأعمال قلوب أصحاب هذه الأسرار تتلقى التجليات

١٨١ الطبري، التاريخ، مصر، ٣، ٤١٨.

١٨٢ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢، ٩٧.



الإلهية اللامحدودة من خلال تطوافها في ملكوت السموات والأرضين، لتتحلى بعد ذلك بحلية معرفة الله تعالى.

يا ربي احفظنا من خسارة الليل بالغفلة والإسراف والخسران، وأنعم علينا ببركة أسراره، واجعل نفوسنا متصلة بفيض الليالي العامرة بالذكر والطاعات، وبلغنا الآخرة عاشقين صادقين مخلصين، واجعل أرواحنا تتذوق لذة لقاك. آمين.

د. الدعاء والمناجاة

إن الدعاء والمناجاة طلب العبد عونَ الله تعالى ولطفه حين يعترف بعجزه أمام عظمة ربه، وبما أن المناجاة أي الالتجاء في الدعاء، عبارة عن العجز ورمز للتوجه إلى المقام الإلهي، فإنه يحمل أهمية عظيمة.

ينبغي على العبد حين يناجي ربه أن ينبض قلبه بصدق كبير وليس كلماته فحسب، وعليه حين يدعو ربه أن يمتلئ قلبُه بالخوف والرجاء، وأن يكون الدعاء نابعاً من قلب مضطر يصدق مع الله ولا يرجو غير الله ولا يثق إلا بالله، فدعاء التائب من معصيته يحمل في أعماقه صدق العهد ولوعة الندم وأمل المغفرة، يقول مولانا قدس سره: «تب بقلب امتلأ بنار الندامة، وعينٍ تَنَدَتْ بدموع التوبة، فالأزهار تتفتح في الأماكن الندية والمشمسة».



على المؤمن الذي يستشعر عبوديته لله تعالى أن يتقرب من ربه في كل آن، فالتربية الدينية الحقيقية تربي المؤمن على التذلل بين يدي الله ومد يد الافتقار إليه سبحانه من خلال التركيز على الدعاءوتكراره في كل موطن من مواطنه، ومن هنا كان الدعاء مفتاح أعظم باب يفتح من قلب المؤمن لله تعالى، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة، ١٨٦)

وكلما تكرر الدعاء يغدو منقوشاً في روح المؤمن نقوشاً عميقة، ولذا فإن الأرواح العلوية تعيش في حالة دائمة من الدعاء، فالدعاء خضوع مع استسلام بين يدي الله تعالى، حيث يتوجه العبد إلى الحق تعالى مستشعرا عظمته سبحانه ومدركا في الوقت نفسه عجزه وضعفه الذاتي، وفي الحقيقة فإن الشروع في الدعاء بالاعتراف بالخطأ والعجز له تأثيره الكبير في استمطار الرحمة الإلهية وقبول الدعاء.

وأعظم من علمنا آداب الدعاء هو رسول الله ﷺ الذي عاشه في كل لحظة من لحظات حياته، فقد كان عليه الصلاة والسلام في التجاء دائم إلى الله تعالى إضافة إلى صلواته التي أداها باكياً إلى أن



تورمت قدماه الشريفتان عليه الصلاة والسلام، فكان يحب الدعاء الصادق النابع من الصميم ولا يدعو بدعاء لا إخلاص فيه. [١٨٣]

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». [١٨٤]

ولا بد للمؤمن من أن يكون حريصاً على كسب دعاء الفقراء والمحتاجين إلى جانب دعائه الدائم لنفسه، يقول عليه الصلاة والسلام: «**ما دعوةٌ أسرع إجابة من دعوة غائبٍ لغائب**». [١٨٥]

ويقول مولانا: «جُدْ دوما بنفسك ومالك وملكك، واحرص على اكتساب قلب يكون دعاؤه نوراً لك في قبرك المظلم».

صور الفضائل

قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:

«ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: «اللهُ أكثرُ». [١٨٦]

---

١٨٣ أبو داوود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٢.

١٨٤ مسلم، الصلاة، ٢١٥.

١٨٥ الترمذي، البر، ١٩٨٠.

١٨٦ الترمذي، الدعوات، ١١٥/ ٣٥٧٣؛ أحمد، ٣، ١٨.



لا يرد الحق تعالى الأدعية الصادقة المخلصة، إلا أنّ بعض الأدعية لا تلقى القبول مع إخلاص صاحبها لمخالفتها القدر المطلق، لكن على العبد مواصلة الدعاء من غير سأم ولا ملل، وفي مثل هذه الأحوال فإن الإجابة تتحقق في الآخرة، لأن الله تعالى قال:

﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ (المؤمن، (غافر)، ٦٠)



قال عليه الصلاة والسلام:

«**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل،** قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟

قال: **يقول: دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء**».[١٨٧]

ثم إن دعاء النبي زكريا: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا**﴾ (الأنبياء، ٨٩). لم يستجب إلا بعد أربعين سنة حيث أكرمه بابنه يحيى عليه السلام.[١٨٨]



سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي، فقال النبي ﷺ: «**عجل هذا!**»، ثم دعاه فقال له ولغيره:

---

١٨٧ مسلم، الذكر، ٩٢.

١٨٨ انظر: مريم، ٧ـ٨، ابن علان، دليل الفالحين، ٤، ٣١١ـ٣١٢.



«إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي، ثم لِيَدْعُ بعد بما يشاء».[١٨٩]

عن ابن عمر رضي الله عنه: «أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال: **"أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا"»**.[١٩٠]



عن عمر رضي الله عنه قال:

«استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن لي، وقال: لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك، فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا».[١٩١]

يقول رسول الله ﷺ:

«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل».[١٩٢]

ولذلك فعلينا الإكثار من الدعاء لإخواننا وطلب الدعاء منهم.



وبما أن التقوى أكثر خصلة نحتاجها في هذه الدار الفانية، فعلينا أن نطلبها في غالب أدعيتنا، جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال:

---

١٨٩ الترمذي، الدعوات، ٦٤/ ٣٤٧٧.

١٩٠ الترمذي، الدعوات، ١٠٩/ ٣٥٦٢.

١٩١ الترمذي، الوتر، ٢٣/ ١٤٩٨.

١٩٢ مسلم، الذكر، ٨٧، ٨٨؛ ابن ماجة، المناسك، ٥.



«يا رسول الله، إني أريد سفرا فزودني. قال: "**زودك الله التقوى**"، قال: زدني، قال: "**وغفر ذنبك**" قال: زدني بأبي أنت وأمي، قال: "**ويسر لك الخير حيثما كنت**"».[193]



عن عبد الله بن عمرو بن العاص:

«أن النبي ﷺ: تلا قول الله ﷻ في إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، وقال عيسى عليه السلام: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: "**اللهم أمتي أمتي**"، وبكى، فقال الله ﷻ: «يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: "يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك ".[194]

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام غاية في الرحمة لأمته مُؤْثِرًا إياهم، وعلينا بعد التفكر في هذا الحديث الشريف أن نحسب مقدار الحب الذي نكنه نحن له عليه الصلاة والسلام، يحملنا هذا

١٩٣ الترمذي، الدعوات، ٤٤/ ٣٤٤٤.

١٩٤ مسلم، الإيمان، ٣٤٦.



الحب على تطبيق سنته الشريفة وتخلقنا بأخلاقه ﷺ برهانا منا على طاعته واتباعه.



وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته:

«اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلمُّ بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتن عني، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز في العطاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم إني أُنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي وضعف عملي افتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور،كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور، اللهم ما قَصُرَ عنه رأيي ولم تبلغُه نيتي ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدا من خلقك أو خيرا أنت معطيه أحدا من عبادك فإني أرغب إليك فيه، وأسألكه برحمتك يا رب العالمين، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير



ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك وعدوا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا من بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظم لي نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا، سبحان الذي تعطف العز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام».[١٩٥]



شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوما يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد الله، ثم قال:

«إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن أوان زمانه، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم»،ثم قال:

---

١٩٥ الترمذي، الدعوات، ٣٠/ ٣٤١٩.



«الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين»، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب أو حول رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابا فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله».(١٩٦)

لقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الاستسقاء وتضرع لله تعالى طلبا للغيث ليعلمنا أن نسأل الله تعالى في كل حال.



عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».(١٩٧)



---

١٩٦ أبو داوود، الاستسقاء، ٢/ ١١٧٣.

١٩٧ مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٧٥/ ٣٤٩٣.



قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا [198]، فدخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القبلة ومد يده، فجعل يهتف بربه عز وجل: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه عز وجل مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل:

﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**﴾». [199]



عن أنس رضي الله عنه قال:

«كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يُكنى أبا معلق، وكان يتَّجر بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكا ورعا، فخرج مرة فلقيه لصٌّ مقنَّع بالسلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلا دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلا

١٩٨ انظر: البخاري، المغازي، ٦؛ الترمذي، السير، ٣٨/ ١٥٩٨.

١٩٩ مسلم، الجهاد، ٥٨؛ البخاري، المغازي، ٤.



فلست أريد إلا دمك، قال: أما إذ أبيت فذرني أصلِّ أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، وكان من دعائه في آخر سجدة أنه قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، ثلاث مرات، قال: دعا بها ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة واضعها بين أذني فرسه، فلما أبصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي؟! فقد أغاثني الله تعالى بك اليوم! قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ اللهَ بدعائك الأول فسُمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسُمعت لأهل السماء ضجيجا، ثم دعوتَ بدعائك الثالث فقيل: دعاء مكروب، فسألتُ الله عز وجل أن يوليني قتله، قال أنس: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أم غير مكروب».[٢٠٠]



وعن أحدهم قال قلت لأم سلمة رضي الله عنها:

«يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك، قالت: أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ثم قال: يا

٢٠٠ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٩ / ١٦٦، ١٦٧؛ ابن حجر، الإصابة، ٤، ١٨٢



أم سلمة، إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، ما شاء أقام وما شاء أزاغ».[٢٠١]



لقد كان يدعو النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً لهداية أمته، حيث دعا لأهل اليمن بقوله:

«**اللهم أقبل بقلوبهم**».[٢٠٢]

ودعا لأهل الطائف الذين رموه بالحجارة في بلدهم وحقروه بشتى أنواع الاستهزاء، وألحقوا بالمسلمين الكثير من الأضرار حتى السنة التاسعة من الهجرة، فدعا ربه ملتجئاً إليه:

«**اللهم اهد ثقيفاً وأقبل بقلوبهم**».[٢٠٣]



وعن علي رضي الله عنه قال:

«بعثني رسول الله إلى اليمن قاضيا، فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء؟ فقال:

"**إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول،**

٢٠١ الترمذي، الدعوات، ٨٩/ ٣٥٢٢؛ أحمد، ٤، ١٨٢، ٤، ٩١.

٢٠٢ الترمذي، المناقب، ٧١/ ٣٩٣٤.

٢٠٣ ابن هشام، ٤، ١٣٤؛ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢.



فإنه حريٌّ أن يتبين لك القضاء"

قال: فما زلت قاضيا أو ما شككت في قضاء بعد».(٢٠٤)



وهذه بعض من دعوات النبي ﷺ التي تنبض بعبوديته وتشف لنا عن حالته القلبية أثناء وقوفه في الحج، ماسكاً عنان دابته بيد ويرفع يده الأخرى:

«اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي، ولك ربى تُراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح.

اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمرى، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقرُّ المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلَّ لك جسده، ورَغِمَ لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقيا وكن بي رؤوفا رحيماً يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

٢٠٤ ابن ماجة، الأحكام، ١.



اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي صدري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.

اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وفتنة القبر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل، وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر». (٢٠٥)

يا لها من دعوات حية تنبض بعبودية النبي ﷺ لربه وتظهر قوام فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام المعصوم من الذنوب في حضرة الحق تعالى.



وفيما يلي بعض من دعوات السلف الصالح في عرفة:

«إلهي، من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي، إلهي، أخرست المعاصي لساني فما لي وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل، إلهي، إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاها ولا للاعتذار وجها ولكنك أكرم الأكرمين، إلهي، إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني، ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء، إلهي، إن ذنوبي وإن كانت عظاما ولكنها صغار في جنب عفوك، فاغفرها لي يا كريم، إلهي، أنت أنت وأنا أنا، أنا العوَّاد إلى

٢٠٥ انظر: ابن كثير، البداية، ٥، ١٦٦ ـ ١٦٨؛ الهيثمي، ٣، ٢٥٢؛ ابن القيم، زاد المعاد، بيروت ١٩٩٥، ٢، ٢٣٧.



الذنوب، وأنت العواد إلى المغفرة، إلهي، إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك، فإلى من يفزع المذنبون، إلهي، تجنبت عن طاعتك عمدا وتوجهت إلى معصيتك قصدا، فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني، فبوجوب حجتك عليَّ، وانقطاع حجتي عنك، وفقري إليك، وغناك عني إلا غفرت لي، يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج، بحرمة الإسلام وبذمة محمد ﷺ أتوسل إليك، فاغفر لي جميع ذنوبي، واصرفني من موقفي هذا مقضي الحوائج، وهب لي ما سألت، وحقِّق رجائي فيما تمنيت، إلهي، دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه، فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه، إلهي، ما أنت صانع العشيةَ بعبدٍ مقرٍ لك بذنبه، خاشعٍ لك بذِلَّتِه، مستكينٍ بجُرمه، متضرعٍ إليك من عمله، تائبٍ إليك من اقترافه، مستغفرٍ لك من ظلمه، مبتهلٍ إليك في العفو عنه، طالبٍ إليك نجاح حوائجه، راجٍ إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن، من أحسن فبرحمتك يفوز، ومن أخطأ فبخطيئته يهلك، اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا، وإياك أملنا، وما عندك طلبنا، ولإحسانك تعرضنا، ورحمتك رجونا، ومن عذابك أشفقنا، وإليك بأثقال الذنوب هربنا، ولبيتك الحرام حججنا، يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يُدعى، ويا من ليس فوقه خالق يُخشى، ويا من ليس له وزير يُؤتى، ولا حاجب يُرشى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى



كثرة الحوائج إلا تفضُّلا وإحسانا، اللهم إنك جعلت لكل ضيفٍ قرى، ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة، اللهم إنَّ لكل وفد جائزةً، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولكل راج ثوابا، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل راغب إليك زلفى، ولكل متوسل إليك عفوا، وقد وفدنا إلى بيتك الحرام، ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا» (٢٠٦)



عن أبي أمامة ﵁ قال:

«دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا، فقلنا:يا رسول الله، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا، فقال: ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله؟ فقال:

«اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شرِّ ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله». (٢٠٧)



---

٢٠٦ ـ انظروا. الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت 1990، 1، 337 ـ 338، البيهقي، شعب الإيمان، 2، 25، 36.

٢٠٧ الترمذي، الدعوات، ٨٨/ ٣٥٢١.



عن أنس ﷺ:

«أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: **"هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟"**

قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنتَ معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **"سبحان الله لا تطيقه -أو لا تستطيعه-، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قال: فدعا الله له فشفاه"**».[٢٠٨]

لذلك علينا التنبه بعناية لما نطلبه من الله تعالى أثناء الدعاء وأن نراعي الأدب مع جنابه العظيم، إذ علينا أن نطلب من الحق سبحانه ما فيه خير وعافية على الدوام.



وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ: «ن مكاتبا جاءه فقال: إني قد عجزت عن مكاتبتي فأعني، قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل صير دينا أداه الله عنك، قال:

"قل: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك "».[٢٠٩]



٢٠٨ مسلم، الذكر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ٧١/ ٣٤٨٧.

٢٠٩ الترمذي، الدعوات، ١١٠/ ٣٥٦٣.



صادف السلطان محمد هوداويندیغار عاصفة هوجاء لفت منطقة ساحة كوسوفا لما دخلها في الثامن من آب عام ١٣٨٩، ولم تكن الأعين ترى بعضها إذ ذاك، ووافق ذلك اليوم ليلة البراءة، فدعا مراد خان بعد أن صلى ركعتين نافلة، ودموعه تنهمر من عينيه، قائلاً:

يا ربي، إن كانت هذه العاصفة قد هبت من ذنوب عبدك العاجز مراد هذا، فلا تعاقب جنودي المساكين بسببي، يا ربي، هم لم يصلوا إلى هنا إلا لإعلاء كلمتك وتبليغ دينك.

إلهي! لم تحرمني من الغزو مرات عديدة، واستجبت دعائي على الدوام، فإني ألتجئ الآن إليك أيضاً، فاستجب دعائي! أغثنا، وأزل عنا سحابة الغبار هذه، نرَ الأعداء ونقاتلهم وجهاً لوجهٍ.

إلهي! لك الملك وهذا العبد، لستُ إلا عبداً عاجزاً، وما من أحد بأعلم منك لنيتي وسري، فلست بطالب مالاً ولا ملكاً، إنما رضاك ما أطلب.

يا ربي! لا تهلك هؤلاء الجند المؤمنين على يد الكفرة، واكتب لهم نصراً يكون عيداً لجميع المسلمين، وإن شئت فليكن عبدك مراد هذا أضحية ذلك العيد.

إلهي! لا تجعلني سبباً في هلاك هذا الجمع من جند المسلمين، وأعن هؤلاء وانصرهم، اجْعِلُ نفسي فداهم، يكفيني أن تتقبلني في زمرة الشهداء! ... فأنا مستعد للتضحية بروحي من أجل جند الله ... جعلتني غازياً، فأكرمني وتلطف علي بالشهادة في الختام، آمين.



وبعد هذه المناجاة الصادقة، بدأ بتلاوة القرآن الكريم في جو من الطمأنينة غير المعتادة.

ولم يكد يمضي قليل من الوقت حتى بدت سحب الرحمة وأمطرت فوق سماء كوسوفا مطراً غزيراً، وتوقفت الريح، وزال الغبار.

وبعد هذه التجليات شن مراد خان هجمة على العدو وختمت المعركة التي دامت ثمان ساعات بنصره، وأثناء تجول مراد خان في ساحة المعركة متفقداً الجرحى والشهداء، إذ بجريح صربي ينهض من بين الموتى قائلاً: دعوني، سأقبل يدي السلطان وأدخل الإسلام، فمشى نحوه مقلداً مشية جريح، لكنه وقد انحنى ليقبل يد السلطان سرعان ما أخرج من تحت إبطه خنجراً كان قد خبأه، وطعن صدر السلطان، وعندها كان دعاء مراد خان الذي شرب من نبع الشهادة، قد تحقق كما أراد...

وختاما، فإن الدعاء جوهر العبودية والعبادة، إضافة أن أكثر الأمور التي ترضي الله تعالى هي إدراك العبد عجزَه وفقره بين يدي ربه تعالى عارضا عليه ضعفه متذللا على أعتابه، ولذا فإنه تعالى يعذب من لا تفيض نفسه بالدعاء ولا يطلب أي شيء منه تعالى.

قال تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان، ٧٧).



إن الدعاء مفتاح أبواب الرحمة، وسلاح المؤمن وعمود الدين ونور السموات والأرض، فمن فتحت أبواب الدعاء له فُتحت له أبواب الخير والحكمة والرحمة، ومن أراد أن يستجيب الله له في الضراء فعليه الإكثار من الدعاء في السراء أيضاً، فذوو الأرواح العظيمة تحيا حياتها بحالة من الدعاء المتواصل.

هـ . الخشوع

هو امتلاء القلب بحب الله تعالى وخوفه، واطمئنان الأعضاء والجوارح بهذه المشاعر.

فالخشوع له تجليان، أصله في القلب ومظاهره في الأعضاء، فأما الناحية القلبية فبجعل النفس تذعن لأمر الحق تعالى، وبالتخلق بآداب التعظيم والاحترام إلى أقصى الحدود من خلال إدراك الإنسان لعبوديته بين يدي عظمة الرب وجلاله، وأما ناحيته المتعلقة بالمظهر الخارجي فتسربل أعضاء الجسم -بتأثير هذه المشاعر- بالسكينة والوقار، فعلى سبيل المثال، إذا خشع قلب المؤمن في الصلاة اطمأنت أعضاؤه وثبَّت نظرَه على موضع سجوده ولم يلتفت يمنة أو يسرة.

ثم إننا نلقى أروع الأمثلة على الحياة وأداء العبادات بخشوع وإخبات في حياة النبي ﷺ وصحبه الكرام والتي تعد قدوة لنا، حيث إنه عليه الصلاة والسلام -إذ لم تغيب الآخرة



عن أي لحظة من لحظات حياته- شد انتباهنا إلى لزوم تذكر الموت والدخول في عوالمه الروحية.

ثم إنه ذات صباح جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

«يارسول الله، عِظْني وأوجز، فقال:

"إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودِّع، ولاتَكَلم بكلام تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس"».[٢١٠]

إن العبادات إنما تكتسب قيمتها إلا عندما تؤدى بيقظة القلب وخشوعه، وأهم خصلة للصحب الكرام وتابعيهم بإحسان إنما كانت الحصول على هذا الرقي المعنوي، وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول لأصحابه: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟

قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم».[٢١١]

إن الخشوع في الصلاة من الأهمية بحيث يكون بمثابة قنطرة خلاص العبد ونجاته، يقول اللّه عز وجل في سورة المؤمنون:

٢١٠ ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد، ٥، ٤١٢.

٢١١ ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت ١٩٧٩، ١، ٤٢٠.



﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ﴾

وقد أخبر النبي ﷺ بأن العبد سيلقى معاملة على حسب اهتمامه بالصلاة بقوله:

«إن الرجل لينصرفُ، وما كُتب له إلا عُشرُ صلاتِه، تُسعُها ثُمُنُها، سُبْعُها سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثها، نصفُها».[٢١٢]

أي إن الصلاة الخاشعة هي التي يؤجر العبد عليها وينال ثوابها. ويوضح ربنا ﷻ كيفية تأدية الصلاة بخشوع على النحو التالي:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

(البقرة، ٤٥ ـ ٤٦)

أي إن الصلاة الخاشعة هي تلك التي يستشعر فيها العبد كأنه يقف بين يدي ربه ﷻ يوم القيامة للعرض والحساب

ثم إن حالة الخشوع هذه حين تستمر خارج الصلاة تصير سلوكا يؤطر حياة المؤمن كلها، ولذا يقول مولانا قدس الله سره: "ينبغي أن تكون حالتك بعد الصلاة كما كانت في الصلاة"، في تفسير له لآية:

---

٢١٢ أبو داوود، الصلاة، ١٢٣ ـ ١٢٤/ ٧٩٦.



﴿الَّذِين هُمْ على صلاتِهِمْ دائِمُون﴾ (المعارج، ٢٣)

ولبلوغ هذه الحالة لابد لنا من التشبه بالنبي والتخلق بأخلاقه السنية، من خلال رابطة الفؤاد الصادقة والعميقة، وقد قال ﷺ:

«...ويحب كل قلب خاشع حزين يعلم الناس الخير، ويدعو إلى طاعة الله، ويبغض كلَّ قلبٍ قاسٍ لاهٍ ينام الليل كله، ولا يذكر الله، فلا يدري يرد الله روحه أم لا؟».[٢١٣]

صور الفضائل

عن عبد الله بن الشخير قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء».[٢١٤]

ومع أهمية إقامة الصلاة فقهيا وفق أركانها الصحيحة، إلا أنه يلزمنا أيضا الاعتناء بروح الصلاة وإقامتها وفق مراد الله منها كما أوضح النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة، فحين يهيء الفقه المؤمن للصلاة بالطهارة والوضوء يهيئه الخشوع إلى نيل الطمأنينة والسكينة للوقوف بين يدي الله تعالى ولقائه سبحانه.



٢١٣ الديلمي، ١، ١٥٨.

٢١٤ أبو داوود، الصلاة، ١٥٦ ـ ١٥٧/ ٩٠٤؛ أحمد، ٤، ٢٥، ٢٦.



يفيد النبي عليه الصلاة والسلام وجوب أداء الصلاة ضمن حالة روحية من الخشوع والتضرع إلى الله تعالى بهذه الرواية:

عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصلاة مثنى مثنى، تشهد في ركعتين، وتخشع وتضرع وتمسكن، ثم تقنع يديك -يقول: ترفعهما- إلى ربك مستقبلا ببطونهما وجهك، وتقول يا رب! يا رب! ومن لم يفعل ذلك فهو كذا وكذا)، وفي رواية: "فهو خداج».[٢١٥]



عن عائشة رضي الله عنها:

«أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال:

"اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي"».[٢١٦]



ولما قام النبي عليه الصلاة والسلام بتعليم أمته أركان الحج عمليا في حجة الوداع بين لهم في الوقت نفسه لزوم الخشوع فيه كما هو الحال في باقي العبادات:

٢١٥ الترمذي، الصلاة، ١٦٦/ ٣٨٥.

٢١٦ الموطأ، الصلاة، ٦٧؛ البخاري، الصلاة، ١٤.



عن ابن عباس ﵄: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجرا شديدا، وضربا وصوتا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال:

"أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاعِ"».[٢١٧]



ولما رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يعبث في الصلاة بلحيته قال:

«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».[٢١٨]



كان سيدنا سليمان ﵇ على ما أكرمه الله من غنى كبير وملك عظيم يعيش حياة عبودية يملؤها الخشوع والتواضع، وبقلب مستغن عن الدنيا، وفي هذا الصدد: روي أن سليمان ﵇ لم يرفع بصره قط إلى السماء حتى مات خشوعاً منه لربه تعالى على ما آتاه الله تعالى من ملك عظيم.[٢١٩]



٢١٧ البخاري، الحج، ٩٤/ ١٦٧١؛ مسلم، الحج، ٢٦٨.

٢١٨ علي المتقي، ٧، ١٩٧/ ٢٢٥٣٠.

٢١٩ ابن أبي شيبة، المصنف، بيروت، دار الفكر ١٩٨٩، ٧، ١١٨.



وروي أن أبا طلحة الأنصاري ﵁ كان يصلي في حائط له، فطار دبسي، فطفق يتردد يلتمس مخرجا، فأعجبه ذلك، فجعل يُتْبِعُه بصرَه ساعة، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى، فقال: لقد أصابني في مالي هذا فتنة، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة، وقال: يا رسول الله هو صدقة لله، فضعه حيث شئت.[220]



وثمة حادثة رائعة في خشوع الصحابة الكرام في الصلاة، فعن جابر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ -يعني في غزوة ذات الرقاع- فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دما في أصحابٍ محمد، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلا، فقال: **من رجلٌ يكلؤنا؟** فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: كونا بفم الشعب، قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم

---

٢٢٠ الموطأ، الصلاة، ٦٩.

قال: سبحان الله: ألا أنبهتني أول ما رمى، قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها».[٢٢١]



قال عبدالله بن عروة بن الزبير:

«قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: " تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله " قال: قلت: فإن ناسا هاهنا إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشيا عليه، قالت: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ».[٢٢٢]

يصف الله تعالى عباده الخاشعين أثناء تلاوة القرآن الكريم فيقول:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء، ١٠٩)

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر، ٢٣)



---

٢٢١ أبو داوود، الطهارة، ٧٨/ ١٩٨؛ أحمد، ٣، ٣٤٤؛ ابن هشام، ٣، ٢١٩؛ الواقدي، ١، ٣٩٧.

٢٢٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٣٦٥.



أصابت سهم قدم سيدنا علي ﷺ في إحدى الغزوات، ولم يتمكنوا من إخراجها بسبب ألمه الشديد، فقال ﷺ: أخرجوه بعد أن أقوم بالصلاة وفعلوا مثل ما قال، فنزع السهم من دون أية صعوبة، وبعد أن سلم سيدنا علي -وقد غاب في صلاة فلم يشعر بأي ألم- قال: «ماذا فعلتم؟، فأجابوم بأنهم نزعوا السهم.



قالت أم أويس القرني له: «يا بني، كيف تقوى على التعبد طوال الليل؟، فأجابها التابعي الجليل قائلا: يا أماه، أقيم صلاتي على أتم حال، وأغيب بخشوع جوارحي عن كل ما حولي، ولعظيم سروري ما أشعر بالصباح إلا قد طلع، فسألته: وما الخشوع يا أويس؟ فأجابها: الخشوع أن يغيب المرء بروحه عن كل ما حوله حتى لو انغرز في جسده رمح لم يشعر به».



وقد روي عن سيدنا زين العابدين أنه كان يذهبُ لونه عند قيامه للوضوء، وترتعش قدماه عند الصلاة، ولما سئل عن السبب قال: «أولستم تعلمون بين يدي مَنْ سأقف؟».[٢٢٣]

---

٢٢٣ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٣٣.



وذات مرة نشب حريق في بيته وهو يصلي، لكنه لم يعلم بذلك، فأخبروه بما حصل بعد فراغه من صلاته، وسألوه: كيف لم تلحظ احتراق بيتك، فقال سيدنا زين العابدين: إن نار الآخرة التي تنتظر الناس أنستني نار الدنيا الصغيرة.

وقد كانت صلاة مسلم بن يسار على هذا النحو أيضاً، فكان يصلي ذات مرة في مسجد بالبصرة، فانهار المسجد محدثا ضجة كبيرة، إلا أن مسلم بن يسار كان يواصل صلاته غير مدرك ما حدث، فسألوه بعد فراغه من الصلاة: لقد انهار المسجد ولم تحرك ساكناً، ما هذه الحال التي أنت عليها؟ فأجابهم -والحيرة تلفه-: وهل انهار المسجد!، مبيناً بذلك أنه لم يدرك شيئاً ما حدث.



ويقول ولي من أولياء الحق: «صليت خلف ذي النون المصري العصر،فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: الله، ثم بهت، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: الله أكبر، فظننت أن قلبي انخلع من هيبة تكبيره».



كان عامر بن عبد الله إذا صلى انقطع عن العالم من حوله، ولم يكن أي شيء مما سوى الله تعالى يفسد خشوعه



في صلاته، وقد قال: «أرجح أن يصيب رمحٌ جسدي على أن ألاحظ كلام وحركات من حولي في الصلاة».



سئل بهاء الدين النقشبندي، كيف يصل العبد إلى الخشوع في الصلاة؟ فأجاب: بأربع: اللقمة الحلال، واستحضار عظمة الوقوف بين يدي الله وهو يتوضأ، وأن يستشعر الطمأنينة عند التكبيرة الأولى، وألا يغيب عن الحق تعالى خارج الصلاة مطلقاً، فالخشوع هو القدرة على الاستمرار في حالة الطمأنينة والسكينة والبعد عن المعصية بعد الصلاة أيضاً.



وأخيراً فإن الخشوع هو تلبية أوامر الله تعالى عن طوعية ورضا، والحرص على اجتناب ما نهى عنه مهما صغر، إن كلاً من الخشوع والتقوى والإخلاص أحوال متقاربة في معانيها، ومصدر هذه الأحوال حبُّ الله تعالى، وحبُّ الله مؤشر على مستوى المؤمن القلبي، وأما هذه السوية المعنوية فتظهر في العبادات حين تؤدى بخشوع وسكينة.

فينبغي أن يملأ الخشوع قلوبنا في العبادات جميعها -وعلى رأسها الصلاة- بل في كل لحظة من لحظات حياتنا، وأن ينعكس من أعضائنا على ما حولنا بحال من الطمأنينة والسكون.



٧ . الاشتغال بالقرآن الكريم

إن القرآن الكريم هادٍ يرشد الخلق إلى طريق الحق، ورحمة للمؤمنين، وشفاء للصدور من أدوائها، وهو في الوقت نفسه مرشد إلهي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويأخذ بأيديهم إلى الله تعالى.

والقرآن الكريم مرسوم إلهي يأمرنا بحياة تتسق مع النظام الإلهي في الكون من خلال بيان الغاية من خلق الكائنات والحكمة من وجود الإنسان، يقول الحق تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر، ٢٣)

فتوضح هذه الآية الكريمة العلاقة القلبية التي ينبغي علينا أن نكون عليها مع القرآن الكريم.

وعبارة مستوى التقوى تعني ثقافتنا القرآنية، والتي تظهر من خلال أخلاق القرآن كالإخلاص في العبادات وحسن الخلق والتعمق الروحي.

ثم إن القرآن الكريم هو الحبل المتين الذي مده الله تعالى إلى عباده الراغبين في النجاة من العذاب الأبدي، والحصول



على رضا الله، فمن تمسك به ينجو ويسمو ويحصل على العز، ومن تخلى عنه يذل ويخزى وينأى عن الطريق السوي.

والقرآن الكريم مائدة ضيافة أعدها الله تعالى لإكرام عباده بها، فالمنضمين إلى هذه الضيافة بإجابة دعوة ربنا يتمتعون بنعم من الطمأنينة والسرور لا نهاية لها.

إن كلاً من كرامة الإنسان وشرفه الحقيقي يتناسب مع كونه عاملاً بأحكام القرآن وكاملاً في أخلاقه، أي إن الإنسان إنما يصل إلى العز والكرامة بحسب طاعته لأوامر الله تعالى والتفافه بفيض وروحانية القرآن، ثم إن الحق تعالى يأمرنا بأن نعي القرآن الكريم ونتفكر فيه، وأن ننظر إلى الحياة من حولنا وفق منطق القرآن الكريم، إذ علينا توجيه عقلنا الذي يعد وسيلة للسعادة والتعاسة بتوجيهات الوحي.

ولولا باب التفكر الذي فتحه القرآن الكريم لنا لحُرِمنا من الإدراك والتعبير عن الكثير من الحقائق، وفي هذا الصدد فإن تفعيل العقل في مضمون القرآن -الذي لا ينضب- يساهم في اغتنام كثير من أبواب الخير، فالاشتغال بالقرآن الكريم يحمل النفس على التخلق بمحاسن الأخلاق الإسلامية.

وقد ورد في الأحاديث التالية:

«إذا أحب أحدُكُمْ أنْ يُحدث ربهُ فلْيقْرأ الْقُرْآن».[٢٢٤]

---

٢٢٤ الألباني، ضعيف الجامع، ٢٩٣.



«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».[٢٢٥]

«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَلْبَسَ وَالِدَيْهِ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَوْ كانَتْ فِيهِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِمَا؟».[٢٢٦]

«مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ».[٢٢٧]

«ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وإن البر ليذر على رأس العبد مادام في صلاته، وماتقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه».[٢٢٨]

وقد بين أن من نسي السور التي يحفظها من القرآن الكريم لعدم اشتغاله بالقرآن يرتكب إثماً كبيراً.[٢٢٩] وأما من كان قلبه خاوياً من القرآن فكالبيت الخرب.[٢٣٠]

٢٢٥ مسلم، المسافرين، ٢٥٢، ٢٥٣؛ أحمد، ٥، ٢٤٩، ٢٥١.

٢٢٦ أبو داوود، الوتر، ١٤/ ١٤٥٣.

٢٢٧ البخاري، فضائل القرآن، ١٩، التوحيد، ٣٢؛ مسلم، المسافرين، ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

٢٢٨ الترمذي، فضائل القرآن، ١٧/ ٢٩١١.

٢٢٩ أبو داوود، الصلاة، ١٦/ ٤٦١.

٢٣٠ الترمذي، فضائل القرآن، ١٨/ ٢٩١٣؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.



«إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ»

قَالُوا: يَارَسُولَ اللَّهِ فَمَا جَلَاؤُهَا؟

قَالَ: «**تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ**».[231]

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ لأصحابه:

«أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ»،

قِيلَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، وَمَاحَظُّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ؟،

قَالَ: «**النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ، وَالاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ**».[232]

يقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«إِنَّ لِلَّهِ ﷻ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»

قِيلَ: مَنْ هُمْ يَارَسُولَ اللَّهِ؟،

قَالَ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ، هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**».[233]

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يفرح باجتماع الناس لقراءة القرآن الكريم وتدارسه والاجتهاد في فهمه، ولذا قال في مثل هؤلاء:

---

٢٣١ علي المتقي، ٢، ٢٤١.

٢٣٢ السيوطي، ١، ٣٩.

٢٣٣ ابن ماجة، المقدمة، ١٦.

«... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». [٢٣٤]

إذن ينبغي علينا أن نزيد من علاقتنا القلبية مع القرآن الكريم لنيل السعادة في الدارين، كما أن علينا أن نكثر من تلاوته وفهمه وإدراكه بقلوبنا وأن نبذل الجهد في تطبيق أحكامه بإخلاص.

صور الفضائل

كان عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن بكل جوارحه، ويتفكر ملياً في معانيه، ويحرص على تطبيق أوامره، فكأنه يقرأه بقلبه من خلال إحساسه به وإحيائه له، فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر تعوذ. [٢٣٥]

وكان النبي ﷺ يقرأ القرآن كلَّ يوم دون انقطاع، فعن أوس بن حذيفة قال:

---

٢٣٤ مسلم، الذكر، ٣٨؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧.

٢٣٥ ـ مسلم، المسافرين، ٢٠٣؛ النسائي، قيام الليل، ٢٥.

«كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ -أسلموا من ثقيف من بني مالك- فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، فلا يبرح يحدثنا ويشتكي قريشا ويشتكي أهل مكة، ثم يقول لا سواء كنا بمكة مستذلين أو مستضعفين فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا ولنا، فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله! قال: طرأ عني حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من ق حتى تختم».[٢٣٦]



قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«قال لي رسول اللّه: "**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**"، قَالَ: قُلْتُ: يَارَسُولَ اللَّهِ،أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! فَقَالَ: "**إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**"، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا، رَفَعْتُ

٢٣٦ أحمد، ٤، ٩؛ ابن ماجة، الصلاة، ١٧٨.



رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْ تُرَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ». [٢٣٧]

يا لها من صورة رائعة تعرض لنا رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بنا نحن أمته.



«أبطأت السيدة عائشة ﵂ على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جاءت فقال: "**أين كنت؟**"، قلت: كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلي، فقال:

"**هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا**"». [٢٣٨]



عن ابن عباس ﵄ قال: «قال رجل: يارسول الله، أي العمل أحب إلى الله قال: "**الحال المرتحل**" قال: ما الحال المرتحل؟ قال: "**الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حلا ارتحل**"». [٢٣٩]

---

٢٣٧ البخاري، التفسير، ٤، ٩؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٧.

٢٣٨ ابن ماجة، الإقامة، ١٧٦؛ أحمد، ٦، ١٦٥؛ الحاكم، ٣، ٢٥٠/ ٥٠٠١.

٢٣٩ الترمذي، القراءات، ١١/ ٢٩٤٨.



وبناء على حكمة الوصول إلى الفضائل التي بينها هذا الحديث الشريف، فإن سورة الفاتحة والآيات الخمس الأولى من سورة البقرة تتلى في دعاء ختم القرآن بعد قراءة الإخلاص والمعوذتين السور الأخيرة في القرآن الكريم، وبهذا يكون قد تم تطبيق عمل صالح مقبول من قبل الله تعالى بافتتاح ختمة جديدة للقرآن الكريم.



عن أبي هريرة ﵁ قال: «قال بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كلَّ رجلٍ منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً، فقال: "**ما معك يا فلان؟**" قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: "**أمعك سورة البقرة!**" فقال: نعم، قال: "**فاذهب فأنت أميرهم**"، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ:

"**تعلموا القرآن واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جرابٍ محشوٍ مسكا يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك**"».[٢٤٠]

---

٢٤٠ الترمذي، فضائل القرآن، ٢/ ٢٨٧٦.



يعرض لنا هذا الحديث الشريف في هذه الحادثة المكانة التي يبلغها المرء الذي يقرأ القرآن ويعمل بما فيه، وقد بين عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ضرورة الاشتغال بالقرآن الكريم، ومسؤولية المؤمنين فيما يتعلق بتعلمه وتعليمه.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إذا تعلموا من النبي عليه الصلاة والسلام عشر آيات لم ينتقلوا إلى غيرها حتى يحكموا ما فيها من الأوامر والنواهي والأحكام فهما وعملا، وبهذا أضحوا عالمين بالقرآن عاملين به.[٢٤١]

يروي ابن عمر ﵄ أن أباه: «تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا».[٢٤٢]

وفي رواية: «أن عبد الله بن عمر ﵁ مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها».[٢٤٣]



ثم إن وفد ثقيف كانوا إذا أتوا رسول الله خلفوا عثمان بن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى

٢٤١ أحمد، ٥، ٤١٠.

٢٤٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت ١٩٨٥، ١، ٤٠.

٢٤٣ الموطأ، القرآن، ١١.



رسول الله ﷺ فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن فإن وجده نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق، فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله ﷺ حبا شديدا، ولما أراد وفد ثقيف العودة إلى ديارهم بعد إسلامهم، سألوا رسول الله أن يختار لهم إماماً من بينهم، فأمر عثمان بن أبي العاص أن يؤمهم، على الرغم من كونه أصغرهم سناً.(٢٤٤)



لقد كانت آيات القرآن الكريم التي تنزل تباعا حسب أسباب الحوادث والمناسبات تغمر النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام بسرور لا يوصف، وتزيد من عزمهم، وتجدد الرابطة القلبية بينهم وبين ربهم تعالى، وقد كانوا منشغلون بالوحي إلى درجة أن انقطاعه بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ضاعف حزنهم وأساهم، وفيما يلي حادثة نرى فيها المثال الأكثر لفتاً للانتباه في المحبة:

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ؓ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَ:

«انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟، مَا عِنْدَ

٢٤٤ ابن سعد، ٥، ٥٠٨؛ ابن هشام، ٤، ١٨٥؛ أحمد، ٤، ٢١٨.



اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، قَالَ: فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا».[٢٤٥]



كان صحابة النبي عليه الصلاة والسلام يقرؤون القرآن الكريم بكثرة، فلا يمر يوم عليهم من دون أن يقرؤوه وكانوا يبدؤون نهارهم به، ويكثرون من النظر فيه، ويوصون من يعاني من علة في بصره بالنظر إلى المصحف الشريف.[٢٤٦]

وقد كان عثمان رضي الله عنه الذي أثني عليه بلقب جامع القرآن لخدمته العظيمة للقرآن من شدة اشتغاله بالقرآن الكريم قد أبلى مصحفين.[٢٤٧]



وروي «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ

٢٤٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠٣.

٢٤٦ الهيثمي، ٧، ١٦٥.

٢٤٧ القطاني، نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، بيروت ١٩٩٦، ٢، ١٩٧.



فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **"اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ"** قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ:

"تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ"».[٢٤٨]



قال النبي ﷺ لأبي بن كعب الذي كان شغوفا بالقران:

«إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، قال: وسماني؟! قال: نعم، فبكى».[٢٤٩]

---

٢٤٨ البخاري، فضائل القرآن، ١٥، المناقب ٢٥؛ مسلم، المسافرين ٢٤١، ٢٤٢.

٢٤٩ البخاري، مناقب الأنصار ١٦، التفسير ٩٨/ ١، ٣؛ مسلم، المسافرين ٢٤٦



كان أبي بن كعب ﷺ على رأس من حفظ القرآن الكريم كاملا من الصحابة، فهو من الأربعة الذين نالوا حظاً وافراً إذ أُثْنِيَ عليهم بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**تعلموا القرآن من أربع**»، وهو أحسن الصحابة قراءة للقرآن الكريم وأكثرهم تلاوة له، [٢٥٠] ولذلك نال أُبَيٌّ ﷺ -باشتغاله بالقرآن الكريم على هذا النحو- كلَّ هذا اللطف والتشريف من الله تعالى، والتي لا ينالها إلا صفوة الخلق بعد الأنبياء، وغدا مظهراً للمديح والثناء الرباني، يا لها من عزة كبيرة وسعادة عظيمة! ..



كان الصحابة الكرام يحذون حذو النبي عليه الصلاة والسلام في الولاء للقرآن والحياة في ظلاله، من خلال ادراك مضامينه والعمل بأحكامه، فكانوا يحلقون بأفئدتهم في فضاء القرآن الكريموأسراره، يقول كنانة العدوي رحمه الله تعالى:

«كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد أن ارفعوا إلى كل من حمل القرآن، حتى ألحقهم فى الشرف من العطاء وأرسلهم فى الآفاق، يعلمون الناس، فكتب إليه الأشعرى إنه بلغ من قبلى ممن حمل القرآن ثلثمائة وبضع رجال، فكتب عمر إليهم بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر

٢٥٠ البخاري، فضائل القرآن، ٨.



إلى عبد الله بن قيس ومن معه من حملة القرآن [٢٥١]، سلام عليكم، أما بعد فإن هذا القرآن كائن لكم أجرا وكائن لكم شرفا وذخرا، فاتبعوه ولا يتبعنكم، فإنه من اتبعه القرآن زخ فى قفاه حتى يقذفه فى النار، ومن تبع القرآن ورد به القرآن جنات الفردوس، فليكونن لكم شافعا إن استطعتم، ولا يكونن بكم ماحلا فإنه من شفع له القرآن دخل الجنة، ومن محل به القرآن دخل النار واعلموا أن هذا القرآن ينابيع الهدى، وزهرة العلم، وهو أحدث الكتب عهدا بالرحمن به يفتح الله أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا ...». [٢٥٢]



كان أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبي عليه الصلاة والسلام المتطوع والعاقل، عندما يختم القرآن يجمع أهل بيته ويدعو معهم دعاء الختم. [٢٥٣]



كان عمر بن الخطاب إذا رأى أبا موسى قال: «ذكرنا يا أبا موسى»، فيقرأ عنده القرآن، وقال عمر لأبي موسى: «شوقنا إلى ربنا»، فقرأ القرآن، فقالوا: الصلاة! فقال عمر: «أولسنا

٢٥١ كانت عبارة حملة القرآن آنذاك تعني حفظته، المشتغلين بلفظه ومحتواه.

٢٥٢ علي المتقي، ٢، ٢٨٥ ـ ٢٨٦/ ٤٠١٩.

٢٥٣ ابن أبي شيبة، المصنف (حوت)، الرياض ١٤٠٩، ٦، ١٢٨.



في صلاة!»، وقال عمر لأبي موسى: «ذكرنا ربنا»، فقرأ عليه أبوموسى، وكان حسن الصوت بالقرآن.[٢٥٤]



«سئل نافع ما كان عمل ابن عمر؟ قال: كان عمله أن يتوضأ ما بين الوقت والآخر، ويفتح المصحف ويقرأ القرآن بين هذين الوقتين».[٢٥٥]



ينال المشتغلون بالقرآن الكريم وحَمَلَته بحقٍّ الكثير من الفضل الإلهي في الدارين، وقد نُقل أنّ أحد أولياء الله تعالى وهو محمود سامي رمضان أوغلو قدس سِرُّه توفي في أضنة وهو معروف بلقب حامل القرآن، تم فتح قبره بعد ثلاثين سنة لضرورة فتح الطريق، فوُجِدَ جسدُه طرياً كما هو، لم يفسد وكفنه غاية في النظافة.

وفي الحديث الشريف: «**إذا مات حامل القرآن، أوحى الله إلى الأرض أن لا تأكلي لحمه، قالت: إلهي كيف آكل لحمه وكلامك في جوفه؟...**».[٢٥٦]



---

٢٥٤ ابن سعد، ٤، ١٠٩.

٢٥٥ ابن سعد، ٤، ١٧٠.

٢٥٦ الديلمي، ١، ٢٨٤/ ١١١٢؛ علي المتقي، ١، ٥٥٥/ ٢٤٨٨.



وينبغي علينا أن نتنبه جيدا فيما للتصرف بأدب واحترام تام أمام القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى، لأننا في زمن نحن أحوج ما نكون فيه إلى فضيلة وروحانية القرآن الكريم.

فعلى سبيل المثال: ليس من الصواب قراءة القرآن الكريم وتعليمه من غير وضوء، إذ أن الآية الكريمة واضحة وقاطعة في هذا: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة، ٧٩). أي الطاهرون النظيفون.

وأما الوضوء من الحدث الأصغر والغسل وأحوال النساء (من الحيض والنفاس) فكلها مواضيع خاضعة للبحث، وقد اتفقت المذاهب الأربعة على حرمة مس المصحف من غير وضوء.[٢٥٧]

ثم إن هذا الحكم قد طبق على هذا النحو منذ عصر النبي ﷺ وحتى الآن، وقد ورد في الأحاديث الشريفة:

«لا تقرأ الحائضُ ولا الجنبُ شيئاً من القرآن».[٢٥٨]

«لا يمسّ المصحف إلا طاهر».[٢٥٩]

---

٢٥٧ الموسوعة الفقهية، ١٨، ٣٢٢.

٢٥٨ الترمذي، الطهارة، ٩٨/ ١٣١.

٢٥٩ الحاكم، ١، ٥٥٣/ ١٤٤٧.



وقد كتب النبي عليه الصلاة والسلام لعمرو بن حزم رضي الله عنه لما أرسله إلى اليمن كتاباً بين فيه الفرائض والسنن والحقوق، موضحاً في كتابه أمره عمرواً بتعليم الناس القرآن الكريم وتبليغه إياهم أوامره وحكمها، إضافة إلى نهيه عن مس المصحف إلا طاهرا[٢٦٠]

قال مالك: «ولا يحمل أحد المصحف بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر.... ولم يكره ذلك لأن يكون في يدي الذي يحمله شيء يدنس به المصحف ولكن إنما كره ذلك لمن يحمله وهو غير طاهر إكراما للقرآن وتعظيما له». [٢٦١]

ومن ناحية أخرى فإنه يلزم -تعبدا- إظهار جميع أنواع الاحترام والأدب للقرآن الكريم، كالإمساك به فوق منطقة أسفل الظهر وما تحتها، وعدم مد القدمين في جهته، وعدم وضع شيء أو أي كتاب غيره فوقه، وعدم إدخاله إلى أماكن قضاء الحاجة، مع إيصال هذه الدقة والاعتناء إلى الأجيال الناشئة، مع العلم بأن القرآن الكريم من أهم شعائر الإسلام، أي يترأس قائمة معالم الإسلام، تقول الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج، ٣٢)

٢٦٠ الموطأ، القرآن، ١، القطاني، ١، ٢١٦.

٢٦١ الموطأ، القرآن، ١.



والحاصل فالقرآن الكريم كتاب سماوي مرسل لهداية الناس إلى الطريق الحق، وتعليمهم ما يعجزون عن معرفته بجهودهم الذاتية، وللحصول على الآخرة، وعليه فإن التمسك به وحفظ حقه أسلم طريق يتمسك به عقلاً.

وقد بين الحديث فضيلة الاشتغال بالقرآن الكريم على النحو التالي:

«كتاب الله، هوحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».[٢٦٢]

فكلما رشفنا من روحانية القرآن الكريم وفيضه ارتقى إيماننا درجة، ومن يتعمق في القرآن الكريم يَحصل على اللطائف الربانية غير المدركة، من خلال اكتساب رضا الله ورسوله، أكرمنا الله تعالى وإياكم بهذا الحال ويسره لنا. آمين.

---

٢٦٢ الهيثمي، ٩، ١٦٤.



٨ . ذكر الله والصلاة على الرسول ﷺ

تتفرّع كلمة "الإنسان"من الجذر عينه الذي تأتي منه كلمة "النسيان" وفق رأي البعض، والنسيان ضد الذكر، وتفيد معنى عدم تذكر شيء، حيث إنه يعد واحداً من أكبر خصائصه الضعيفة، وقبل كل شيء فالإنسان بحاجة إلى الذكر كي يتلافى أضرار النسيان الموجود في فطرته للمحافظة على حيوية شعور العبودية لله وعبادته على الدوام، إذ إن التكرار يقوي إدراك المرء للشيء المكرر وانصباغه به.

وترد كلمة الذكر في القرآن الكريم مائتين وخمسمائة مرة لأهميتها الخاصة في وظيفة العبودية، إذ إن القيام بالعبودية الحقة لله تعالى والوصول إلى معرفته تعالى يتحقق وفق مقام الذكر المحاز في القلب والتعمق المحسوس فيه، ولذا قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

﴿... ولَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، أي أكبر عبادة (العنكبوت، ٤٥)

ولما وصف الله تعالى أولي الألباب، أصحاب العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا



كالصم البكم الذين لا يعقلون، قال فيهم:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩١)

إن القلب -الذي بمثابة السلطان للجسد- حين يصل إلى النور الذي يميّز بين الحق والباطل من خلال إحيائه بذكر الله تعالى، يغدو بوصلة توجه الجسد إلى الحق والخير، ويرشد الأعضاء التي تحت إمرته، وبالنتيجة يوصلها إلى مقام عبودية يرضي الله تعالى.

يبين رسول الله ﷺ فضيلة الذكر على النحو التالي:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت».[٢٦٣]

وانطلاقاً من هذا فبما أن الغافلين عن ذكر الله تعالى بعيدون عن حبه تعالى فهم ضمن وعيد إلهي، تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون، ٩)

٢٦٣ البخاري، الدعوات، ٦٦.



﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذكرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف، ٣٦)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ (طه، ١٢٤)

ولقد حذرنا الله تعالى في كثير من مواضع القرآن من مخاطر الغفلة الجسيمة عن ذكر الله تعالى، وفي إحدى هذه المواضع يقول الله تعالى فيها:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد، ١٦)

نزلت هذه الآية لإيقاظ بعض الصحابة ممن ظهر فيهم التراجع والتهاون بعد الهجرة إلى المدينة، حيث حصلوا على نِعَمٍ وفيرة بعد أن عانوا في مكة المحن والضوائق.[٢٦٤]

ثم إنه تعالى لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لهما:

---

٢٦٤ انظر: السيوطي، اللباب، ٢، ١٥١ ـ ١٥٢

﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي**﴾ (طه، ٤٢).

على الرغم من كونهما نبيَّان. وبهذا قد أراد أن يكونا مثالاً وعبرة لنا بتحذيره حتى الأنبياء من الابتعاد عن الذكر.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام في وجوب لزوم ذكر الله تعالى ومراقبته في كل حال:

«**لا تُكْثِرُوا الْكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تُقَسِّي الْقَلْبَ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي**». [٢٦٥]

ثم إن بلوغ الأفئدة المؤمنة مقام رضا الله تعالى لا يكون إلا بالتخلص من قساوة الغفلةواليقظة المعنوية الدائمة عبر "الذكر الدائم"، وهذا لا يتحقق بذكر مؤقت بمدة أو محدود بفترة، بل بحمل شعور ذكر الله تعالى في كل نَفَس طوال الحياة.

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه».[٢٦٦] .

يقول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾ (الأحزاب، ٤١)،

---

٢٦٥ الترمذي، الزهد، ٦٢/ ٢٤١١.

٢٦٦ مسلم، الحيض، ١١٧.

لم يفرض الله تعالى فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال العذر، أما الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله وأمرهم به. [٢٦٧]

ويقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام في صدد الحث على الذكر والتواجد في مجالسه:

«لَأن أَقْعُد مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ مِنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ، إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ». [٢٦٨]

ومن ناحية أخرى فإن الصلاة على النبي ﷺ من جملة الذكر، يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

يبين سيد الكون قيمة الصلاة عليه على الدوام على هذا النحو:

«من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا وفي رواية من

---

٢٦٧ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت ١٩٩٥، ٢٢، ٢٢، القرطبي، ١٤، ١٩٧.

٢٦٨ أبو داوود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٧.



صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات[٢٦٩]**ويحط عنه عشر سيئات ورفعه بها عشر درجات».**[٢٧٠]

«**أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة**».[٢٧١]

ومن ضمن الذكر تلاوة القرآن الكريم والتفكر بآياته إلى جانب عبادات كثيرة كالصلاة والتسبيح والحمد والتكبير والتهليل والاستغفار.

صور الفضائل

«قال أحدهم دخلت على عائشة فسألتها: بم كان رسول الله ﷺ يفتتح إذا هب من الليل، فقالت: سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا هب من الليل كبر عشرا، وحمد الله عشرا، وقال: "**سبحان الله وبحمده عشرا**"، وقال: "**سبحان الملك القدوس**" عشرا، واستغفر الله عشرا، وهلل الله عشرا، ثم قال: "**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة**" عشرا، ثم يفتتح الصلاة».[٢٧٢]



٢٦٩ مسلم، الصلاة، ٧٠.

٢٧٠ النسائي، السهو، ٥٥.

٢٧١ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٤.

٢٧٢ أبو داوود، الأدب، ١٠١/ ٥٠٨٥.



وكان النبي ﷺ يحبّذ من الذكر والدعاء ما قلّ لفظه وكثر معناه، فعن جويرية: «أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: **"ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟"** قالت: نعم، قال النبي ﷺ:

"لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"».[٢٧٣]



وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».[٢٧٤]

يريد الحق تعالى أن يكون فؤاد عبده معه في كل لحظة، ويقول في الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران، ١٩١)

أي يذكرون اللّه في كل وقت، وتفيد الأحاديث الشريفة الآنفة الذكر فضل التسبيح وعِظَمَ أجره، أي إنها من جهة

---

٢٧٣ مسلم، الذكر، ٧٩.

٢٧٤ البخاري، الدعوات، ٦٥، الأيمان، ١٩، التوحيد، ٥٨؛ مسلم، الذكر، ٣١.



للترغيب والتشويق، وفي هذا الصدد فيكون من الضروري عدم حصر ذكر الله تعالى بالتسبيح فقط وملازمة الذكر الدائم بمقتضى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.



قال عبد الله بن بسر ﵁: «جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير قال:

"من طال عمره وحسن عمله"

وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتثبت به فقال:

"لا يزال لسانك رطبا بذكر الله ﷻ "» .[٢٧٥]

وبناء على ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام فبقاء الإنسان في حالة دائمة من الذكر يحفظه من الغفلة والنسيان، ويساهم في زيادة طاعته وانقياده لأوامر الله تعالى ونواهيه، أي إن الذكر يعد وسيلة تقوية معنوية وباعثا روحيا يزيد من رغبة المؤمنين في تطبيق الأحكام الدينية.



---

٢٧٥ أحمد، ٤، ١٨٨.



وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ

فقال: أي الجهاد أعظم أجراً؟

قال: "**أَكْثَرُهُمْ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْراً**"

قال: فأي الصائمين أعظم أجراً؟

قال: "**أَكْثَرُهُمْ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْراً**"

ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك رسول الله ﷺ يقول: أَكْثَرُهُمْ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْراً فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله ﷺ: **أَجَلْ**».[٢٧٦]

ما يعني أن تعويد النفس على الذكر في كل الأحوال، سيكون أكبر مكسب لنا.



قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مُنْطَلِقٌ فَعِظْنِي، قَالَ:

"**يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاعْمَلْ بِقُوَّتِكَ لِلَّهِ مَا أَطَقْتَ، وَاذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ شَجَرَةٍ وَحَجَرٍ، وَإِنْ أَحْدَثْتَ ذَنْبًا فَأَحْدِثْ عِنْدَهُ تَوْبَةً إِنْ سِرًّا فَسِرًّا، وَإِنْ عَلانِيَةً فَعَلانِيَةٌ**".[٢٧٧]

٢٧٦ أحمد، ٣، ٤٣٨؛ الهيثمي، ٥، ٧٤.

٢٧٧ الهيثمي، ٥، ٧٤.



قال النبي ﷺ يوماً لأصحابه مبيناً فضل مجالس الذكر:

«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر».[٢٧٨]



روي عن عبد الله بن رواحة أنه كان إذا لقى رجلا من أصحابه قال له: «تعال نؤمن بربنا ساعة. وذات مرة سمعه أحد الصحابة يقول ذلك، فذهب إلى النبي، وقال: يا رسول الله، ألا ترى ابن رواحة، يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟! فقال له النبي:

"رحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة"».[٢٧٩]



يقول عبد الله بن شداد: «أن نفرا من بنى عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا قال فقال النبي ﷺ: **من يكفنيهم**؟ قال طلحة: أنا، قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثا فخرج فيه أحدهم فاستشهد قال ثم بعث بعثا فخرج فيهم آخر فاستشهد قال ثم مات الثالث على فراشه قال طلحة فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة فرأيت الميت على فراشه امامهم ورأيت الذي استشهد أخيرا

---

٢٧٨ الترمذي، الدعوات، ٨٢/ ٣٥١٠.

٢٧٩ أحمد، ٣، ٢٦٥.



يليه ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم قال فدخلني من ذلك قال فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له قال فقال رسول الله ﷺ:

"وما أنكرت من ذلك ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله"».[٢٨٠]



خرج الشيخ أفتادة يوماً مع تلامذته في نزهة، فأحضر كل واحد منهم مجموعة أزهار امتثالاً لأوامره حين تجولهم في مكان جميل، إلا أن محمود أفندي القاضي القديم لبورصة والمعروف فيما بعد بعزيز محمود هدايي أتى وفي يده زهرة ذابلة ساقُها مكسور، فبعد أن قدم الطلاب ما في حوزتهم من الأزهار إلى أستاذهم وهم فرحون مسرورون، قام محمود أفندي بتقديم زهرته الذابلة والمكسورة إلى سيدنا أفتادة، فسأل -وسط دهشة المريدين-: يا بني، لم أحضرت زهرة ذابلة مكسور ساقها، في حين أن الجميع أحضر مجموعة من أجمل الورود؟ فأجاب محمود أفندي في غاية الأدب مطأطئاً رأسه: يا سيدي، كلما أقدمه إليك قليل، إلا أني كلما مددت يدي لقطف زهرة رأيتها تذكر ربها قائلة "الله" "الله"، فلم يرض قلبي أن أمنعها من هذا الذكر، فاضطررت حينئذ أن

---

٢٨٠ أحمد، ١، ١٦٣.



أقطف هذه الزهرة الذابلة العاجزة عن مواصلة ذكرها، إن كل ذرة في الكائنات مظاهر العبر، لكل ذي قلب رقيق. إذ إن جميع المخلوقات من ذوات الروح أوْلَا تذكر الله، تقول الآية الكريمة:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
(الإسراء، ٤٤)

وعليه فإن الإنسان ينبغي عليه إدراك الوظيفة المكلف بها، وعدم الغفلة عن ذكر ربه تعالى باتعاظه من هذه الصورة العظيمة للكائنات.



ثم إن إحدى أفضل أذكارنا الصلوات الشريفة، فكلما أكثر المسلم من الصلاة والسلام على النبي ﷺ كانت الفائدة المعنوية التي يجنيها الذاكر بقدر ذلك، لأن شأن النبي ﷺ عظيم وعال عند ربه.

وقبل كل شيء فإن ربنا تعالى رفع نبيه وأجلّه برحمته ورضاه وقبوله من خلال صلاته عليه، وأمرنا أن نقوم بذلك أيضاً.

عن عبد اللّه رضي الله عنه قال: علّمنا رسول اللّه ﷺ التّشهّد:



«التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».[٢٨١]



يقول أبي بن كعب ﷺ:

«كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ"

قال أبي: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟

فَقَالَ: **"مَا شِئْتَ"**

قال: قلت: الربع؟

قَالَ: **"مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**

قلت: النصف؟

قَالَ: **"مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**

قال: قلت: فالثلثين؟

---

٢٨١ مسند ابن أبي شيبة، ٢٠٥، ٢٠٦.



قَالَ: "مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"

قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟

قَالَ: "إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"».[٢٨٢]



وفي رواية «بينا رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلى فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ:

"عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدْ اللَّهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ، ثُمَّ ادْعُهُ"

وفي رواية له (٣٤٧٧):

"إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ".

قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ:

"أَيُّهَا الْمُصَلِّي، ادْعُ تُجَبْ"».[٢٨٣]



---

٢٨٢ الترمذي، القيامة، ٢٣/ ٢٤٥٧.

٢٨٣ الترمذي، الدعوات، ٦٤/ ٣٤٧٦.



عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ».[٢٨٤]



عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ:لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ: أَلا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً ؟ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ: فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟ فَقَالَ:

"قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آل إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . اللهم بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آل إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".[٢٨٥]



عن أوس بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ:

"إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ".

---

٢٨٤ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٦.

٢٨٥ البخاري، الدعوات، ٣٢؛ الترمذي، الوتر، ٢٠؛ ابن ماجة، الإقامة، ٢٥.



قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - يقولون: بليت -؟ قَالَ:

"**إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ**".[٢٨٦]

وفي رواية تتعلق بفضيلة الصلاة والسلام الدائمة على النبي ﷺ يوم الجمعة قال سيدنا علي ﵁:

"من صلى على النبي يوم الجمعة مائة مرة جاء يوم القيامة وعلى وجهه من النور نور يقول الناس أي شيء كان يعمل هذا؟".[٢٨٧]



وفي الحديث: «**إن جبريل صعد قبلي العتبة الأولى فقال: يا محمد فقلت: لبيك وسعديك فقال: من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين فلما صعد العتبة الثانية فقال: يا محمد قلت: لبيك وسعديك قال: من أدرك شهر رمضان فصام نهاره وقام ليله ثم مات ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت آمين فلما صعد العتبة الثالثة قال: يا محمد قلت: لبيك وسعديك قال: من ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت آمين**».[٢٨٨]



---

٢٨٦ أبو داوود، الصلاة ٢٠١/ ١٠٤٧، الوتر ٢٦.

٢٨٧ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٢١٢.

٢٨٨ الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٦؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٠/ ٣٥٤٥.



ويروى عن أحد الصالحين قوله: «كان لي جار، ينسخ الكتب التي صنفها العلماء، رأيته في المنام لما توفي، فسألته: كيف لاقاك الله تعالى؟ فأجاب: قد غفر لي، فسألته: بأي عمل غفر لك؟ فقال: كنت حين أكتب اسم النبي ﷺ في الكتب أصلي عليه دائماً، ولذا فقد أكرمني الله تعالى بنِعَم لم ترها عينٌ ولم تسمع بها أذنٌ ولم تخطر على قلب أحدٍ».[٢٨٩]



ويروى: «أن أحداً من الذين لم يتخلقوا بخلق النبي عليه الصلاة والسلام رأى سيد الكون في منامه ذات ليلة، فلم يكن يلتفت إليه ولا يظهر له أي اهتمام، فسأله وهو حزين: يا رسول الله أمستاء مني؟ أجابه: لا، فسأله مستغربا: إذاً لم لا تبدي أي اهتمام بي؟، فقال: لا أعرفك، فسأله: كيف ذلك يا رسول الله؟ أنا من أمتك، وقد أخبرنا العلماء أنك تعرف أمتك كما تعرف الأمُّ أولادها، فأجابه: صدقت، إلا أني لا أرى فيك علامة من أخلاقي الحسنة، ولم تصلني منك صلاة علي، ولتعلم أني إنما أعرف من أمتي بقدر تخلقه بأخلاقي، فاستيقظ ذلك المؤمن من نومه والحزن يلفه، ثم تاب عما كان عليه وتجمل بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام الحميدة، وبعد

٢٨٩ النبهاني، سعادة الدارين، ص: ١٠١.



فترة رأى النبيَّ عليه الصلاة والسلام في منامه مجدداً وقال له: أنا الآن أعرفك وسأشفع لك».



وخلاصة القول فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«**يحشر المرء مع من أحب**».[290]

واتباع النبي ﷺ في أحوالنا وأفعالنا شرط وفق قانون «المحب يحب كل ما يتعلق بحبيبه»، ومثل هذا العشق والحب والاتباع يكون بحيث يكوِّن عَظْمَ العجز للحب الإلهي، وكل حب غير هذا غير معتبر في طريق القرآن والسنة، فالطريق الوحيدة التي يمكن الوصول منها إلى الحق تعالى «طريق الوصول» مرهونة بحب رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم إن ذكر الله تعالى والصلوات الشريفة غذاء وجودنا المعنوي، وضمان سعادتنا الأبدية، إذ نرتقي في عالمنا القلبي والروحي إلى الكمال بالذكر، ولهذا فقد قال الله تعالى:

﴿... **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد، ٢٨)

وأما الطريق إلى العبودية الحقَّة فتمر من الذكر الدائم، فحينها فقط تكتسب حياتنا لذة وحلاوة معنوية، **أكرمنا الله جميعاً، آمين.**

---

٢٩٠ البخاري، الأدب، ٩٦.



٩ . الخوف من لحظة الموت والاستعداد لها.

عندما ينظر الإنسان إلى منظومة الكائنات بعين الاعتبار والاتعاظ يدرك أن حقيقة الموت هي من أكثر الأمور التي ينبغي عليه اليقين بها، وقد قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ...﴾ (الرحمن، ٢٦)

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء، ٣٥)

وكم هو غريب الإنسان عندما يخدع نفسه في هذه الدنيا -التي ما هو فيها إلا كعابر سبيل ليوم أو يومين- حيث يظن الموت بعيداً عنه مع أنه يرى الجنائز تمر أمام ناظريه كل يوم، ظاناً نفسه مالكاً حقيقياً لدنياه الفانية، بينما هو فيها مسافر دخلها من باب حين أودعت روحه في جسده، ليستعد لذلك الطريق إلا أنه لا يتذكر ذلك، وإذا بيوم يأتي تفارق الروح فيه الجسد، فيُوَدَّع لسفر آخر عظيم ويخرج من الدنيا من باب الموت ليجد نفسه في القبر الذي هو باب الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

فألا يدركون هذا السفر المليء بالعبرة.

إن المقصد الأساسي من الحياة الدنيا للإنسان إنما هو الفوز بالسعادة في الدار الآخرة حين يحيى عبودية ترضي الله تعالى، يقول رسول الله ﷺ:



«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ...».[٢٩١]

ويا له من تعبير رائع لهذا في كلام نجيب فاضل إذ يقول:

أيها الصراف اصنع لنفسك كيساً آخر

واجمع فيه الدراهم المقبولة في القبر

الحياة كقطرات الماء التي تملئ الكوب، وأما لمعان الماء الموجود في الكوب مرهون بلمعان وصفاء القطرات، والقطرة الأخيرة في الكوب هي بمثابة النفس الأخير.

وفي الحديث الشريف:

«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».[٢٩٢]

فإن عاش المرء حياة بملء فؤاده بالله تعالى والقضاء على آلهة الهوى والرغبات النفسية غير الضرورية في القلب، واستمر على هذا المنوال بعيشه حياة روحانية، يرجى رحيله بإيمان وفوزه بالجنة، ثم إن إتيان الشهادتين أثناء خروج روح من عاش حياة مختلفة أمر غَايَةٌ في الصعوبة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام:

«يموت المرء على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه».[٢٩٣]

---

٢٩١ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

٢٩٢ أبو داوود، الجنائز، ١٥ ـ ١٦/ ٣١١٦؛ الحاكم، ١، ٥٠٣.

٢٩٣ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، ٥، ٦٦٣.



إن النَفَسَ الأخير كمرآة صافية براقة، حيث إنه الوقت الذي يكون فيه الإنسان مدركاً وعارفاً لنفسه أكثر من أي وقت آخر، فتُعرض محاسبة الحياة أمام قلبه وعينيه، ولذا فما من مشهد أشد عبرة للإنسان من لحظة الموت.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**». [٢٩٤]

فلا بد من الاستعداد لتوديع هذا العالم الفاني بعبودية حقة، وتجهيز الأنفاس المعدودة للنفس الأخير، أي من الواجب واللازم لحياة سعيدة في الآخرة، قضاء حياة مزينة بالأعمال الصالحة وقائمة على الاستقامة، يقول الحق تعالى:

﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ (الحجر، ٩٩)

فعلى هذا النحو يرحل العباد الخواص الذين يقضون حياتهم في حب الله تعالى وحب رسوله ويزينونها بالأعمال الصالحة، فيرحلون عن هذه الدار بطمأنينة معنوية ويقين تام بكلمة التوحيد في لحظاتهم الأخيرة، وأما الخاسرين ممن انخدع بالإغواءات النفسية الفانية والمتع الدنيوية الزائلة، ومن وهت صلاته بربه وساءت أخلاقه وصفاته الروحية فإنهم يموتون على ما كانوا يعيشون عليه فوق التراب، ليبؤوا بالذلة والخسران تحت التراب.

---

٢٩٤ الترمذي، القيامة، ٢٦/ ٢٤٦٠.



قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«"**ما من أحد يموت إلا ندم**"، قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: "**إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع**"».[٢٩٥]

ويحذر الله عباده من هذه العاقبة قائلاً لهم:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المنافقون، ٩ ـ ١١)

والحاصل فإن موتتنا وحياتنا البرزخية المستمرة إلى يوم القيامة ستتشكل وفق ما كنّا عليه في الدنيا وما كانت عليه أعمالنا.

وما أجمل ما يقوله مولانا:

«أي بني، تكون ميتة كل أحد من لونه، ومن ينفر من الموت ويعاديه –ممن لا يدرك أنه وسيلة للقاء ربه تعالى– يبدو له الموت كعدو مهيب، في حين أنه يظهر كصديق ودود لمن يصادقه».

---

٢٩٥ الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣.



«أيتها النفس الخائفة الهاربة من الموت، ما تخافينه في الحقيقة هو نفسك وليس الموت، لأن ما أذهلك وأخافك في مرآة الموت ليس وجه الموت وإنما وجهك القبيح أنت، روحك كشجرة، وأما الموت فأوراق تلك الشجر، وكل ورقة تلائم نوع الشجرة ...».

ما يعني أن حسن الموت مرتبط بتحسين الحياة بالأعمال الصالحة.

صور الفضائل والعبر

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

«كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟

قال "**أحسنهم خلقا**"، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال:

"**أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس**"».[٢٩٦]



عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بل الثرى، ثم قال: يا إخواني لمثل هذا فأعدوا».[٢٩٧]

---

٢٩٦ ابن ماجة، الزهد، ٣١.

٢٩٧ ابن ماجة، الزهد، ١٩.



كان عمر رضي الله عنه قد طلب من خادم له أن يكرر عليه كل يوم مقولة: يا عمر لا تنس الموت، إلا أنه لما بدى الشيب في لحيته قال له: يكفي، فإن شيب لحيتي يذكرني كل لحظة بالموت.

وفي الحقيقة فإن علينا لكبح شهوات نفوسنا عدم نسيان الفناء والموت.



لقد نقل لنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام مشاهد من أحوال القبر والقيامة والآخرة كي نتفكر، فنتعظ ونستعد للنفس الأخير والموت وما وراءه، فقال عليه الصلاة والسلام:

«إن المؤمن إذا احتضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله، وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنهم ليناوله بعضهم بعضا يشمونه، حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فكلما أتوا سماء قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، قال: فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه، قال: فيسألونه ما فعل فلان؟ قال: فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال لهم: أما أتاكم؟ فإنه قد مات، قال: فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية، قال: وأما الكافر، فإن ملائكة العذاب تأتيه، فتقول: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب



الله وسخطه، فيخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون به إلى باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح! كلما أتوا على الأرض قالوا ذلك حتى يأتوا به أرواح الكفار».[٢٩٨]



وعنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:

«يُجَاءُ بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَعْطَيْتُكَ وَخَوَّلْتُكَ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ، فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَرِنِي مَا قَدَّمْتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ كُلِّهِ، فَإِذَا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خَيْرًا فَيُمْضَى بِهِ إِلَى النَّارِ».[٢٩٩]

هذا هو المآل البائس الذي سيحل بمن قضى حياته غافلاً في الدنيا، ولم يأخذ العدة للآخرة، يخبرنا الحق تعالى عن ذلك في كتابه على النحو الآتي:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق، ١٠ ـ ١٤)

٢٩٨ النسائي، الجنائز، ٩.

٢٩٩ الترمذي، القيامة، ٦/ ٢٤٢٧.



أي إنه كان في الدنيا بين أهله مسرورا بالدنيا بين يديه فأعماه ذلك عن الموت حتى ظن أنه لن يموت.

وأما المثال الآخر على من لحقته العاقبة الوخيمة باغتراره بثروته وجاهه وجبروته، فقارون، يبين لنا الحق تعالى قصته المليئة بالعبرة في القرآن الكريم كما يلي:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص، ٧٦ ـ ٨١).



إن حال قارون لمثال حي على عاقبة المتكبرين في الأرض باغترارهم بثروتهم وقوتهم حتى نسوا أن الموت لا بد وأن يتخطفهم يوماً ما.



عن أبي هريرة ﵁، قال:

«قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

قال: "هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟" قالوا: لا، قال: "فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟" قالوا: لا، قال:

"فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع، فيقول: بلى، أي رب فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من



ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه"».(٣٠٠)

فأنى للعبد إخفاء ذنوبه في يوم حساب تشهد فيه جميع أعضائه -وحتى الأرض التي من تحته- عليه؟ لذا علينا العيش بانتباه ودقة كيلا تَسْوَدَّ وجوهنا يوم العرض عليه سبحانه.



يقول عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، قَالَ: يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا: يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».(٣٠١)



---

٣٠٠ مسلم، الزهد، ١٦/ ٢٩٦٨.

٣٠١ البخاري، الجنائز، ٦٨، ٨٧؛ مسلم، الجنة، ٧٠.



يروى أن سليمان ابن داوود عليهما السلام كان قد مرَّ بالقرب من مزارع يحرث الأرض، فقال المزارع: ما من شك في أن عائلة داوود عليه السلام أوتيت ملكاً عظيماً، فنقلت الرياح مقولته إلى سليمان عليه السلام، فنزل من راحلته على الفور ووصل إلى المزارع مشياً، وقال: أتيتك ماشياً حتى لا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم أكمل قائلاً: إن تسبيحاً لله تعالى يلقى القبول منه لخير مما أعطي لداوود وأهله من مال وملك. [٣٠٢]

ثم إن الأعمال المؤداة بإخلاص في هذه الدنيا الزائلة، ستكون رأس مال السعادة في العالم الأبدي، وفي الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر، ١٨)



لا مفر من الموت، وما من دواء له إلا الاستعداد له، يقول عليه الصلاة والسلام:

«**كان داود** عليه السلام **فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار،**

٣٠٢ البرسوي، روح البيان، اسطنبول ١٩٦٩، ٦، ٣٣٢ ـ ٣٣٣.



فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبض».[٣٠٣]

هكذا يكون استقبال من أخذوا عدتهم وتجهزوا للموت لعزرائيل عليه السلام ...

وما أروع ما يقوله نجيب فاضل:

تلك مرتبة تعلو الحجب فيها وتسدل

فيا سعد من قال حينها لعزرائيل: أهلا



فلا بد من الاستعداد ليوم الحساب، ذلك اليوم العسير والمليء بالمصائب، وإرسال نعم الله التي منَّ بها، إلى الآخرة ما دمنا قادرين على ذلك، وهذه الجمل التي قالها أبو ذر رضي الله عنه في وجوب الاستعداد للموت وما بعده، والطريق إلى ذلك لخصها بأروع ما يكون حيث قال:

«في المال شركاء ثلاثة: القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلاك أو موت، والشريك الثاني في المال الوارث، ينتظرك إلى أن تضع رأسك، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل

٣٠٣ أحمد، ٢، ٤١٩.



ما تملك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها، إن الوارث يقول لنفسه: فلأستمتع بما ترك لي، والثالث أنت، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها».

يقول الله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران، ٩٢)،

أي لن تنالوا كمال الخير إلا بالإنفاق، وإن أحب أموالي إلي دابتي هذه، وحتى ألقاها في الآخرة، أرسلها قبلي، فأجعلها صدقة في سبيل الله تعالى.[٣٠٤]



كان في العصر العثماني عالم مشهور يدعى أوج باش [٣٠٥]نور الدين حمزة أفندي، قد جمع أمواله حرصاً منه عليها إذ لم ينفقها، ولم يكن يركب الفرس، ويكتفي بالألبسة القديمة والأحذية البالية، وهو بهذا يقتصد في ماله بزعمه، ولذا عرف بين الناس ب«الشيخ المحب للمال».

---

٣٠٤ أبو نعيم، الحلية، ١، ١٦٣

٣٠٥ لقب باسم القرية التي ولد فيها وهي تابعة لقاراصوي، وهو من الفئة العلمية والقضاة، توفي في تاريخ ٩٤٨/ ١٥٤١، ولمعرفة المزيد عن حياته وهذه الواقعة يمكن الاطلاع على: تاش كوبرو زاده، الشقائق النعمانية، (تح. أ. صبحي فرات)، ص: ٥٤٠ ـ ٥٤١.



وقد بنى الشيخ بماله الذي جمعه مدرسة أوج باش في قارا غومروك الكائنة في منطقة فاتح في اسطنبول ثم مسجد أوج باش، وخصص الكثير من دور الوقف وعين غرفاً لسكن العلماء والفقراء، فقال له من يعرفه والحيرة تحيط بهم:

«يا أستاذ، كيف تمكنت من إنفاق المال مع حبك الشديد له؟ فأجابهم الشيخ بجواب تملؤه العبرة والنكتة قائلاً: «أصحابي الأعزاء، أنتم محقون، حبي للمال كبير، فلم أرض أن يبقى مالي في الدنيا، لذا أرسلته قبلي إلى الآخرة».



وقال علي رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».[٣٠٦]

كطالب خرج من قاعة الامتحان، لا يمكنه العودة إليها والإجابة على ما قصر فيه من الأسئلة وليرفع درجاته...

وقد قال بعض أولياء الله تعالى مستفيداً من قول علي رضي الله عنه:

«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة إلينا، متجهة إلى المدبر ومدبرة عن المقبل إليها غير مشغولة به».



---

٣٠٦ البخاري، الرقاق، ٤.

كان أبو الدرداء يقول:

«وإني أخاف عليكم شهوة خفية في نعمة ملهية، وذلك حين تشبعون من الطعام وتجوعون من العلم، إن خيركم الذي يقول لصاحبه: اذهب بنا نصوم قبل أن نموت، وإن شراركم الذي يقول لصاحبه: اذهب بنا نأكل ونشرب ونلهو قبل أن نموت».[٣٠٧]



كان ظهر سفيان الثوري قد انحنى، فأجاب السائلين:

«كان لي شيخ تعلمت منه الكثير، فحضرته الوفاة، ولقنته كلمة التوحيد إلا أنه عجز عن قولها، فرؤية هذا الأمر أحنى ظهري».

ثم إنه ما من أحد معصوم عدا الأنبياء حتى إن التجاء يوسف عليه السلام إلى ربه قائلاً:

﴿...تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، (يوسف، ١٠١)

يفيد أن الأنبياء يعيشون حياتهم بقلق اللحظة الأخيرة، لذا على المؤمن العمل في مزيج من الشعور بالخوف والرجاء على الدوام، وتخزين زاد التقوى.



مر شقيق البلخي بجانب مقبرة، فقال وهو ينظر إليها بعين العبرة:

---

٣٠٧ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢١٨.



«أدركَ أكثرُ مَن هنا أنهم كانوا مغترين في الحياة الدنيا...، فسألوه: لم؟ فأجابهم: أولم يظنوا أن لهم مالاً وملكاً وبيتاً ومركباً وحديقة، إلا أنكم أنتم أيضاً ترون أن الأمر خلاف ذلك ...».



ومن الملفت للنظر حال ربعي بن هيثم أحد أولياء الله تعالى، فيما يتعلق بالاستعداد للموت والآخرة، إذ كان يحاسب نفسه على الدوام، حتى إنه حفر لنفسه قبراً في بستانه، يدخل فيه إن هو شعر بقساوة قلبه، ويمكث فيه مدة، يتفكر في مجيء اليوم الذي يودع فيه الدنيا ويغدو بحاجة إلى استغفار وصدقة، فيدخل في حالة من المحاسبة النفسية بتفكره في حساب الآخرة، ثم يتلو الآيات:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون، ٩٩ ـ ١٠٠).

ثم يقول لنفسه بعد خروجه من القبر:

«انظر يا ربعي، لقد رُددتَ اليوم ولكنه سيأتي عليك وقت يُرفض طلبك فيه ولا تُرد إلى الدنيا، فتجهز له وأكثر أعمالك الصالحة، وجهودك المبذولة في سبيل الله واستعداداتك للآخرة».





وكم هي رائعة نصائح الإمام الغزالي التي يقول فيها:

«فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى شريك يفرغ المجلس لمشارطته، فيعيّن وقتا خاصا يتكلم فيه مع نفسه ويخاطبها وينبهها ويحثها ويؤنبها ويوبخها بما يلي:

ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يُرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددتِّ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة.

واعلمي يا نفسُ أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر: أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها نتنها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى فيها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها



ما يسره ولا ما يسؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعه والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار».



وقد قضى خالد البغدادي –وقد بلغ ذروة العلوم الظاهرية والباطنية– حياته بالخوف من اللحظة الأخيرة، فنجد مثل هذه الجمل كثيرا في رسائله:

«... أقسم بالله تعالى، أني لا أؤمن بأني عملت ولو عملاً واحداً لاقى القبول والاعتبار من قبل الله تعالى، ولن أحاسب عليه منذ ولدتني أمي وحتى الآن، (إلا أنني ألتجئ إلى رحمة الله تعالى) فإن أقصى حد في الجهالة أن تنظر إلى نفسك أنها قد أفلست في جميع أعمال الخير...» [٣٠٨]

---

٣٠٨ خالد البغدادي، المكتوبات، مولانا خالد، اسطنبول ١٩٩٣، ص: ١٧٨.



وفيما يلي عبارات نجدها في رسالته إلى صديق له، تعكس لنا قلقه فيما يتعلق بالاستعداد للخاتمة إذ يقول:

«... أذكركم بأن لا تنسوا الاشتغال بما يلزم للنفس الأخير، والعمل بما يتوافق والسنة السنية، وعدم الالتفات إلى محاسن الدنيا الخادعة، والدعاء لهذا العبد الفقير (قاصداً نفسه) بحسن الخاتمة، (أي العيش بحياة ترضي الله تعالى، والتمكن من الموت بإيمان)».[٣٠٩]

إذاً هذا ما كان عليه صفوة أولياء الله تعالى، حيث أنهم لم يعولوا على أعمالهم إطلاقاً، وإنما كانوا يلتجؤون إلى الله تعالى في أمر لحظة الموت، وعليه يلزمنا طلب حسن الخاتمة من الحق تعالى على الدوام.

كان ثمة بائع بُقُولٍ يقع دكانه على باب الخروج من البلد، فكان كلما مرت جنازة من باب المدينة وضع بذرة فاكهة في إبريق عنده وبعد شهر يحصيها ويقول: «لقد وقع هذا الشهر هذا القدر من الأشخاص في الإبريق، وفي إحدى الأيام، مات هو، وبعد مضي فترة طويلة، زاره صديق له جاهلاً خبر موته، فسأل جيرانه عنه، ماذا حصل لصاحب هذا الدكان الذي كان يقيم هنا؟ فقالوا: لقد وقع هو أيضاً في الإبريق».

٣٠٩ المكتوبات، مولانا خالد، ص: ١٧٥



ويا لها من نكتة ذات عبرة ... ولنكن على علم بأن كل واحد منا لا بد وأن يقع في إبريق الأجل يوماً ما، إلا أن الإنسان يشاهد رحيل الناس من حوله واحداً تلو الآخر إلى الحياة الباقية، لكنه ولغفلته يظن نفسه بعيداً عن الموت.



يقول حسن جان نديم السلطان يافوز سليم خان:

ظهرت بثرة كبيرة في ظهر السلطان يطلق عليها «شيربانجة»، وقد نمت في فترة قصيرة حتى بدت كثقب، إلى درجة أننا كنا نرى رئتيه، وكان يعاني بشدة، وكأنه أسد جريح، فلم يكن يتقبل حالته هذه، بل يواصل إعطاءه الأوامر التكتيكية لجنده، فدنوت منه مرة، فقال لي مشيراً إلى نفسه: ما هذه الحال ياحسن جان؟

فقلت له وقد استشعرت بلوغه آخر الحياة الزائلة وأول الحياة الباقية، وألم الفراق يعتصر قلبي: يا مولاي، يبدو أن الوقت قد حان للقائكم الله تعالى، فالتفت نحوي ونظر إلي بحيرة: حسن، حسن! مع من كنت تحسبني حتى الآن؟.. أرأيت فيَّ تقصيراً في توجهي للحق تعالى؟. فقلت وقد استحييت من قوله هذا: حاشاك، أيها السلطان، لم أقصد ذلك، وإنما تجرأت فيما قلت لبيان أن ما أنتم عليه الآن في وقتكم هذا يختلف عن سائر أحوالكم، وقد بات السلطان غارقاً في عوالم مختلفة تماماً، قال لي أثناء ذلك: اقرأ



سورة يس يا حسن، فبدأت القراءة بعينين مبللتين، ولما بلغت آية السلام سلم روحه إلى بارئها.

لا يتمكن الكثير ممن لم يكن مع الله تعالى في حياته من نيل هذه النعمة في لحظاتهم الأخيرة، ولذا لابد من استخدام الحياة لخدمة الغايات السامية للفوز بموت ونهاية جيدة.



كان السلطان مراد خان الثاني شخصية لا تفكر في راحة نفسها وإنما برضا الله تعالى، فكان من العزم والمتانة إلى حدٍّ جعله لا يتوانى عن التضحية بنفسه، وأما أكبر همه، فحسن الخاتمة والموت على الإيمان، والمثول بين يدي الله تعالى يوم الحشر مرفوع الجبين خالياً عن الآثام، كما أنه قال لوزيره الباشا إبراهيم جاندارْلي بعدما زوج ابنه وبناته:

«يا جاندارلي، أحمد الله أننا أدينا ما يجب علينا تجاه أولادنا في هذه الدنيا، وبقي انتقالنا عن هذه الدار بإيمان».



كان الضابط مظفر الذي قدم نجاحاً كبيراً في معارك «جناق قلعة»، قد حارب ببسالة في جبهة الشرق التي ذهب إليها فيما بعد، فأصيب بجراح ثقيلة أثناء تصادم دام، ووصلت به الحال إلى عجزه



عن التكلم أو الإيماء بعينيه لبيان أمر ما، فأخرج ظرفاً من جيبه، وتناول واحدة من القش من الأرض وغمسها في الدم وبدأ يكتب: أين القبلة؟ فلبوا طلبه بجعله يستدير ناحية القبلة على الفور، فكتب إلى جنده الأباة في مجادلة أخيرة منه، ووجهه مستبشر باللقاء من ناحية ومن ناحية أخرى مهتماً بالدفاع العظيم للغاية المقدسة:

«لتستمر الفرقة في الجهاد في سبيل الله تعالى، كيلا يذهب دمي هباء»، وقد أراد كتابة رسالة أخرى إلا أن أجله لم يسمح بذلك، حيث سلم روحه إلى بارئها مستشهداً.

يا لها من دقة وحساسية رائعتين، تجعله يبلِّغ مقصده بسحبه دماً من عرقه لإظهار رغبته في تسليم روحه مواجهاً للقبلة في نَفَسِه الأخير، إذ عجز لسانه عن التعبير عن أي شيء، هذه هي اللحظة الأخيرة للعمر المنقضي في سبيل الله تعالى، حيث تكون مباركة مقدسة.



ثم إن حالة أحد أولياء الله تعالى محمود سامي رمضان أوغلو في أنفاسه الأخيرة من حياته لأنموذج رائع لنا، وأما سامي أفندي فقد كان ولياً لله تعالى ممتلئاً فؤاده بحب رسول الله ﷺ، فكما أن الإنسان يجد طريقه بتعقبه آثاراً في الثلج أحدثها ماشٍ قبله، فإن سامي أفندي كان في اتباع آثار النبي عليه الصلاة والسلام صادقاً



مخلصاً كهذا تماماً، حيث قضى عمره مشغولا بذلك، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة بجوار النبي عليه الصلاة والسلام الذي قضى حياته مشتغلاً -بعشق وهيجان- في تعقب أثره وأثناء أذان التهجد، فكان مَن حوله قد سمعوا أن ما نطق به لسانه في لحظاته الأخيرة لم يكن إلا: الله، الله، الله. وفي الحقيقة فلم يكن لسانه ينطق بذلك فقط، بل جسده أيضاً بكل خلاياه وروحه تقول: الله...



والحاصل فإن العبد كي يُسلم روحَه على أحسن حال من الإيمان عليه أن يزكي نفسه أولاً وينقي روحه، بتطهيرها من الميول الخبيثة، وتجميلها بالخصال السنية، لينال تجليات أسماء الله الحسنى، إذ إن بلوغ القلب قوام التقوى بهذه الطريقة أغلى شعلة هداية في طريق الهداية، وكلمات مولانا التالية توضح ماهية التزكية إذ يقول:

«ليس القبر بالحجارة والخشب والجوخ، وإنما يلزمك حفر قبر لك في قلبك الخالي عن أي لوثة، وفي عالم طهارتك الروحية، ولذا لا بد من القضاء على غرورك وذاتيتك في مواجهة وجود الله تعالى العظيم».

وبعد ذلك يجب الاستعداد للعالم الأبدي على أحسن وجه من خلال العبادة والطاعة والإنفاق بنفس مزكاة.



كما أن الحق تعالى يبشر عبده الذي زين حياته بالأعمال الصالحة، ولم يغفل عنه أبداً ببشرى جميلة في آخر حياته فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت، ٣٠)

أكرمنا ربنا جميعاً بالانتساب إلى من ذكرهم في هذه الآية، آمين!..



فهرس



